عمر أبو ريشة

شاعر الحب والوطن

عبد العزيز النعماني

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الناشـــر : **الـــدار المصريـــة اللبنانيـــة**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٤٧٩٣ / ٩٧
الترقيم الدولي : 8 - 340 - 270 - 977
جمع وطبـع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : محـرم ١٤١٨ هـــ مـايـو ١٩٩٧م .

عمر أبو ريشة

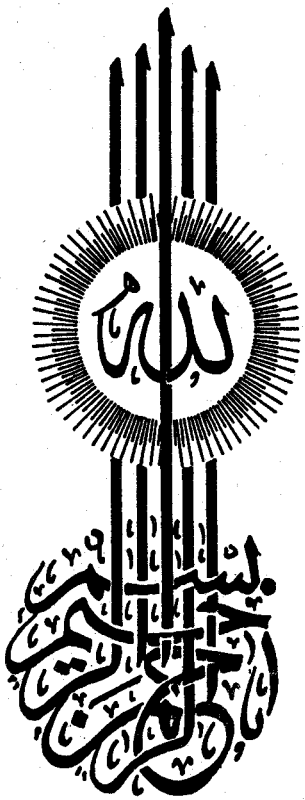
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء ١١

مقدمة ١٧

الفصل الأول ٢١

ـ بداية البداية ٢١

الفصل الثانى ٣١

ـ الجانب الإنسانى والحس القومى ٣١

ـ زاوية الرصد ٣٦

الفصل الثالث ٤٣

ـ الشاعر وقضايا عصره ٤٣

ـ الوطن ٤٤

ـ الحب ٥٩

ـ الغربة والموت ٧٠

الفصل الرابع ٧٥

مختارات شعرية ٧٥

قائمة المراجع ٨٦

هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .
والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثرِهم . . والمُمجِّدُ لذكرهم .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أما العصر العباسى الأول يبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول على بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السياسية ـ وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثن تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، متجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجِزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسول الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، خطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذج ، وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ،فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئة . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء شعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاَّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاصَ والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدفق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلاَّق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب . . هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

مقدمـــة

ليس مطلوبًا من الشاعر ـ أى شاعر ـ أن يجنى من حدائق الشعر زهورها دون أن تصيبه الأشواك .

وليس مطلوبًا منه أن يبعث إلى الناس أنفاسًا هادئة فى السحر ، تتغنى بأغنيات حالمة ، والناس فى سُبات .

وليس مطلوبًا ـ أيضًا ـ من الشاعر أن يكون مغنيًا يؤدى ما كتبه الآخرون دون أن يبعث فيه من روحه وملكاته ما يجعل الناس يستقبلون أداءه استقبالاً طيبًا ، أو استقبالاً حارًا .

والشاعر لا يستطيع أن يُحَوِّل نفسه إلى أثير خالص ، لأنه ابن هذه الدنيا بكل ما فيها ، وكل ما لها وما عليها .

إذن لابد أن يعيش الشاعر قضايا عصره كإنسان ، بروح شاعر تسبح فى الملكوت ثم تعود إلى دنيا الناس لتقول كلمة الصدق ، الكلمة البوْح ، لأن الشعر فى النهاية فن صياغة الحياة .

فالوطن قضية يعيشها الشاعر ، لأنه يحتل مرتبة فكرية ، وشعورية متميزة بين الناس . ويطمح من كل قلبه إلى أن يأخذ بأيديهم إلى مناخات فكرية وشعورية تتواءم مع مكوناته الثقافية والفكرية والحضارية .

والحب قضية أساسية يعيشها الشاعر ، على نحوم يصنعها الواقع ، أو يصنعها خياله . . إنها إذن لون من المعاناة يختلف من واحد لآخر، من

خلال رقة الحس ، وقوة الشعور ، وشدة الإصغاء إلى صرخات الروح ، وتساؤلها .

كما أن الموت قضية ثالثة يتأملها الفيلسوف ، ويتروَّى الشاعر فى الحديث عنها . . إلا أن كل هذا يحتاج إلى مُعَاركة الحياة ، ومحاولة الوقوف على أسرارها ، فإما أن يهادن ، وإما أن يصارع . إما أن يتمثل قول أبى الطيب المتنبى :

ومَنْ عــرفَ الأيــامَ معـرفتى بهــا ... وبالنَّــاسِ رَوَّى رُمْحَـه غير راحــم

فليس بمـرحــومٍ إذا ظفـروا بــه ... ولا فى الرَّدَى الجارى عليهم بـآثم

وإما أن يعرض عن مضمون هذا القول ، ويلجأ إلى ما تفيض به النفس من جذوة الفكر ، وتَوقُّد الحِسِّ ، والسَّبْح فى ملكوت فياض .

وشاعرنا أبو ريشة عاش فى دنيا الناس ليقول كلمته فى الوطن ، والمرأة ، والموت . . عاش مندمجًا فى قضايا أمته ، يحلم حينًا ، ويبأس حينًا ، ويصور كل هذا فى شعره الذى حاولنا عرض جوانب منه فى هذا الكتاب .

لقد كان شامخًا فيما خلَّفه من شعر ، يقول ، وينقد ، ويعبِّر عن رأيه فى صراحة وقوة ، حتى أصبح واحدًا ممن ترْوَى أشعارهم ، وتتردد بين الشاعرين والدارسين . انظر إلى قوله :

أصبح السفــح ملعبًا للنسـور

فاغضبى يا ذُرَى الجبال وثورى

وتأمل ما يقول ، وكأنه يرمز إلى نفسه :

لملِمى يا ذُرَى الجبال بقايا النسر

وارمـى بهـا صـدور العصـــور

لقد تعرضتُ لفن الشاعر أبى ريشة ، بعد أن وضعتُه على مائدة يختار كل قارىء ما يحلو له من معروضها ، وهو فى النهاية مأكل طيب ، ومشرب سائغ ، وهذا ما قصدت ، والله من وراء القصد .

المؤلف

بداية البدايـة :

شاعرنا « عمر أبو ريشة » واحد من شعراء الثلاثينيات ، الذين كانوا من رواد التجربة الرومانسية ، القائمة على العواطف والمشاعر الهاربة ، التى حاولت الغوص فى الذات البشرية منتظمة فى الوجود الكونى كله . . كادت ولما تفعل . لقد كانت هذه المشاعر تطل وتولِّى ، فكانت بهذا أقرب إلى اللحظة العابرة منها إلى اليقين النهائى ، الذى تحاول فيه النفس أن تخلُص إليه فى تنازعها مع الذات والوجود .

وُلد عمر أبو ريشة فى « منبج » بسورية قبيل سنة ١٩١٠ م بقليل ، وانتقل به أبوه وهو صغير إلى حلب ، فتعلم فى مدارسها الابتدائية ، ثم واصل دراسته حتى انتسب إلى الجامعة الأمريكية ببيروت ، حيث حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٩٣٠م . وخلال هذه الفترة ظهرت موهبته الشعرية ، فقال الشعر ، وتطور بثقافته اطلاعًا وإبداعًا ، حتى جذب الأسماع إليه بقصائده ومحاولاته للإبداع المسرحى الذى أفرز مسرحيته « رايات ذى قار » وهى الموقعة الشهيرة فى التاريخ العربى ، التى ارتفعت فيها رايات العرب خفاقة عالية .

ثم كان ارتحاله إلى « مانشستر » لدراسة صناعة النسيج ، إلا أن ميله الأدبى والشعرى بصفة خاصة ـ حفزه إلى دراسة الأدب الإنجليزى ، مما أمده

برافد جديد أثرى ثقافته الأجنبية ، إلى جانب ثقافته العربية ، فازدادت خصوبة خياله ، واتسعت مجالات إبداعه الشعرى .

ومنذ بداية القرن العشرين ، تتجمع فى أُفق الشعر العربى سُحُب كثيفة من القلق والسخط على مفاهيم الشعر العربى التى تحاصرها التفاهة والسطحية . ويتوالى صدور دواوين الرواد من الشعراء الثائرين المتأثرين بالرومانسية ، فيصدر ديوان الخليل لمطران ، ودواوين عبد الرحمٰن شكرى ، ثم دواوين العقاد ، وكذلك دواوين بعض رواد الرومانسية فى العالم العربى، كأبى القاسم الشابى فى تونس ، والتيجانى يوسف بشير فى السودان ، ودواوين أخرى لشعراء المهجر . ويجد القارىء العربى فى هذه الدواوين شعرًا جديدًا نابضًا بنغم وجدانى طازج ، يمتاز باخضرار الرؤية الجديدة ، والثورة العاطفية المشبوبة ، التى تخالطها أحيانًا ذهنية نابعة من تأمل الشاعر فى الكون والحياة .

ومن الظواهر المثيرة للتأمل أن الشاعر العربى الذى اعتزل الحياة السياسية فى عهد التيار الرومانسى ، وانطوى على نفسه، يجتر تأملاته ، ويستبطن مشاعره الداخلية ، ويهيم فى بحار الملاح التائه ، حالمًا شاردًا ، حزينًا يائسًا . . هذا الشاعر نفسه هو الذى رأيناه بعد الحرب العالمية الثانية يندفع بكل طاقته وأبعاده إلى ضراوة الصراع المذهبى العالمى ، متأثرًا بتلك الموجة من المناقشات الفلسفية والسياسية فى أوساط المثقفين الجامعيين ، ومتأثرًا بمعارك قضايا التحرر من أغلال الاستعمار التى كانت الشعوب العربية والإفريقية تخوضها فى تلك الفترة ، ومتأثرًا أيضًا بالاتجاه الواقعى ، وقضية الالتزام .

لقد تدفق نهر الحزن الرومانسى فى رياض الشعر العربى ومغانيه ، فلاذ الشعراء العرب بالحب والطبيعة ، واتخذوا من ذلك مهربًا ، احتجاجًا على

الواقع العربى الأليم ، فى ظل مفاسد النظم الاستعمارية الجاثمة على صدر الوطن العربى ، وانعزلوا فى صومعة الحب والطبيعة ، والتأمل فى الكون وفكرةالموت ، بعيدًا عن المجتمع وصخبه ، منسحبين من مفاسد العالم الخارجى إلى العالم الداخلى ، عالم الذات وأعماقها . وهذا هو الشاعر المصرى أحمد فتحى يعبر عن هذا الروح قائلا :

تسألين الرفاق عنى ومالى ... بى إلى عُزْلَتى هَوًى وحنينُ
وجميل أن تسألى حين قومى ... كلُّهم بالسؤال عنى ضنينُ
أنكرَتْنِى دُنْيَاى ، حتى كأنِّى ... أنا وحدى فى الناس ماء وطينُ
فاغفرى لى الفرار من سامر الحى ... حياءً من أن ترانى العيونُ

وقد بدأت طلائع ذلك التيار الرومانسى فى شعر « مطران » و «شكرى » و « العقاد » و « المازنى » منذ بداية القرن العشرين ، ثم جاءت مدرسة «أبولُّو » فأمدت ذلك التياربما حوَّل مجرى الشعر العربى منذ الثلاثينيات إلى الاندماج والتلاشى فى أمواجه القوية الزاحفة ، بحيث لم يدع للتيار الكلاسيكى أو التيار التراثى إلا بعض قنوات هنا أو هناك ، لا تكاد تقوى على مزاحمته فى سريانه وتدفقه . . وظل التيار الرومانسى عنيفًا وهادرًا ومسيطرًا على الساحة الأدبية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث أخذت موجاته فى الانحسار والتضاؤل أمام زحف التيارات الشعرية المتأثرة بالمذاهب السياسية والفلسفة العالمية ، إضافة إلى ذلك ما كان من تأثير كبير لشعراء المهجر فى دعم التيار الرومانسى وتقويته .

لقد كانت هناك مؤثرات سياسية واجتماعية تؤدى إلى تقوية هذا التيار ، وتلوين صُوَرِهِ ، وأول هذه المؤثرات المفاسد السياسية والاجتماعية التى

صدمت وجدان الشاعر العربى فى عهد طغيان الاستعمار الغربى واستبداده، ولم تقف عند هذا الحد ، بل صبغت تجارب الشعر بالحزن والتشاؤم ، واليأس أحيانًا ، كما كان للحرب العالمية الأولى أثرها فى غرس بذور القلق والتمرد ، وتهيئة المجتمع العربى لانفجارات عاطفية ، بل وزلزلة فى التقاليد والعادات . عبَّر المازنى ـ مثلا ـ عن ذلك قائلاً : « ثم جاءت الحرب فرجَّت الدنيا ، وزلزلت قواعد الحياة فيها ، وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة فى الأمور الحسية . كما كان سريان تيار الانتهازية الحزبية، ومحاصرة التمزق الحزبى لمكاسب بعض الثورات الوطنية العظيمة ، كثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ م . .كان لذلك أثره فى تفجير أحزان شعراء الرومانتيكية العربية ، وهروبهم من أجواء التمزق الحزبى إلى مدن مثالية صنعتها لهم أحلامهم الرومانتيكية ، وتبدو هذه المدن الحالمة الحزينة فى عوالم الطبيعة والحب ، والموت والقلق والتأمل » .

ولا يكاد الدارس لشعراء الرومانسية فى العالم العربى يجد تطبيقًا لمبادىء ثورتهم التجديدية أصدق من ذلك التطبيق الذى يجده عند شعراء مدرسة «أبولُّو » التى مهد لها شعر الرواد الأوائل ونقدهم ، وهم مطران ، وشكرى ، والعقاد ، والمازنى . فقد احتضنت هذه المدرسة الشعر الوجدانى ، ورحبت بالأدب الغربى ، وعانقت كل حركة تجديدية ؛ ولذا كنا نقرأ فى مجلتها «أبولُّو» الشعر الأوربى المترجم ، والأسطورة اليونانية المنظومة ، وبكائيات الحب الشاردة ، وتراتيل القلب فى مغانى الطبيعة الحالمة ، وصيحات النقاد التجديدية فى معاركهم التى يخوضونها لرد هجمات الشعراء والنقاد الكلاسيكيين ، وظل الاتجاه الفنى لهذه الجماعة يلوِّن الشعر العربى بظلاله وسماته فى ثلاثينيات هذا القرن وأربعينياته ، ولم تنحسر أمواجه عن شواطىء الشعر العربى إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهر تيار الشعر

الحر ، قويًا مسيطرًا على مساحات كبيرة من خريطة الشعر فى العالم العربى .

وإذا انتقلنا إلى شعرائنا فى المهجر الأمريكى ، وجدنا أنهم قد رفدوا ذلك التيار بروافد جعلته يتدفق بقوة فى نهر الشعر العربى . ومن يرجع إلى شعر هؤلاء الشعراء فى غربتهم بأمريكا سيجد أن شعرهم تأثر بالدعوة إلى الثورة التجديدية التى كان على رأسها العقاد وشكرى والمازنى فى مصر ، وتزعمها فى المهجر جبران ، وإيليا أبو ماضى ، وميخائيل نعيمة ، الذى لخص فى كتابه «الغربال »أهم اتجاهات الشعر المهجرى الجديد الذى يدعون إليه . وكان للتيار الرومانتيكى الأوربى أثره الواضح فى شعرهم ، واتجاهاتهم الفكرية والنقدية .

واجتمعت سمات مشتركة لشعراء الرومانسية فى العالم العربى ، وفى المهجر الأمريكى ، تأثرًا بما قرءُوه فى الفكر الغربى ، وفى الإرهاصات الفكرية للرواد فى عصرهم .

وسط هذا الجو المفعم بالحركة والفكر ، كان شاعرنا أبو ريشة ، يحيا ويقرأ ، ويتأثر ويفكر ، ويكتب . . ويضرب فى كل منحى من مناحى الإبداع الشعرى ، إلا أنه يظل متأملا باحثًا ، كما تمثل ذلك قصيدته (إفرست) التى اتسمت بالشجو وخفوت الجَرْس ، والنزوع إلى ما وراء المظاهر . لقد تمثلت له الأرض وكأنها مفتونة بحبيب مُتَخَفٍّ ، تحن إليه وتناديه نداءها البعيد ، وربما تمثل لها فى نجم مدت إليه يدًا لم تدركه ، ولا تزال تسعى إليه . إن الشعر قد يسنح لهذه الخطرات التى يفسر بها العالم تفسيرًا أسطوريًا ، ينطوى على مضمون وجودى ثابت . لقد أراد الشاعر بذلك كله التعبير عن شوق الحياة إلى هتك حُجُب المجهول ،تحن إليه ، كأنه عاشقها الذى بعُد عنها ، وفارقها بلا أمل فى العودة . . لذا اختنقت

لهجة الخطابة فى القصيدة ، وصحا على إثر ذلك التلهف الصاعد من نفس ينطلق منها البوح بالألم المبرح . يقول أبو ريشة :

إليكَ غير الظن لا يرتقى
يا عاصِبَ الغيم على المفرق
لَأَنْتَ مجلى الأرض فى شوقها
إلى البعيد المُتْرَفِ الشيِّق
غازلها نجمٌ غوىُّ السنا
وهزها من خدرها الضيق
فانتفضت تهتف : يا خَصْرَهُ
قرِّبْ . . ويا وجدى به : طوِّقِ
فكنتَ منها اليد ، ممتدةً
ولم تزل ممتدة يا شقى

لقد نشأ أبو ريشة نشأة مكَّنته من أن يعيش أزمة جيله ، الأزمة النابعة من الانقسام الداخلى ، ليس هذا فحسب ، بل أيضًا التناقض بين عالم القيم المثالى الذى استمده الجيل من الثقافة الأوربية ، وبين عالم الواقع الذى كان يعيش فيه . وكلما حاولوا المقارنة بين العالمين أحسوا بالمرارة الشديدة والخيبة ، لأن الواقع لم يكن يستطيع أن ينبض ويستجيب لقيمهم التى حاولوا فرضها عليه ، فأحسوا بالوحدة والانعزال عن عالمهم ، وأنهم طبقة متميزة فريدة ، لا تجد صَدًى لها فى الواقع الجامد ، فرفضوا واقعهم رفضًا شديدًا ، ووقفوا منه موقف المعلم والمرشد ، وظلوا قابعين فى عالم المثل المجردة التى تعيش فى أذهانهم وحدهم ، يبدءون منها ويعودون إليها ، ولم

يتعاطفوا مع هذا الواقع ؛ لأنهم لم يبدءوا منه ، ولذا عجزوا عن تصويره والالتقاء معه ، ظل أدبهم فى جملته عقليًّا منطقيًّا تجريديًّا (١) ، يبكى الزمن، وطلل الأشياء المنقرضة . ولكنه ليس كالوقوف القديم على الأطلال، عندما كان يبدأ به الشاعر قصيدته . لقد وقف الشاعر « بيرون » أيضًا على الأطلال، أطلال أثينا ، ناحًا حزينًا وكان وقوفه استبطانًا لذاته . وهنا يقف عمر أبو ريشة على أطلال صرح رومانى ، تآكل مع الزمن وبقيت منه آثار ، يقول :

قِفى .. قَدَمِى ! إن هذا المكان
يغيب بـــه المـــرء عـــن حسِّـه
رمـــال وأنقـــاض صـــرح هـــوت
أعاليـه تبحث عـــن أُسِّـــه
أقـلِّب طـرفـى بـــه ذاهِـــلا
وأســأل يـومـــىَ عـن أمْسِـــه
أكـانت تســيل عليـه الحيـــاة
وتغفـــو الجفـــون علـــى أُنْسِـه
وتشـــدو البلابـــل فـــى سعـــده
وتجـرى المقاديـــر فـــى نحســه (٢)

إن الشاعر فى الظاهر يخاطب قدميه ، ولكنه ـ بالتأمل ـ يخاطب ذاته داعيًا إياها إلى تأمل مصير الأشياء ، فهذا الصرح الذى ابتناه الفاتحون فى ظل غرورهم بقوتهم ومالهم وجاههم ، جَسَّدُوا كل ذلك فى بناء مكين شامخ يمثل القوة التى هى مثال الضعف ، والمال الذى هو صنو الفقر ، والجاه

(١) حول الأدب والواقع . د . عبد المحسن بدر ، ص ٩١ .
(٢) نحسه : النحس ضد السعد .

الذى ينتهى إلى الهوان . إن الشاعر يكاد يغيب عن الوعى لأنه يُصاب بالذهول من هول ما يَئُولُ إليه المصير البشرى . . أهذا صرح أم رمس ؟ والذين أقاموا به كانوا أشباحًا أم أحياء ؟ وهل اختص إنسان هذا العصر بهذا الشقاء أم أنه تيار يسرى عبر كل العصور ؟ يقول أبو ريشة :

أأستنطقُ الصَّخْرَ عن نَاحِتيه
وأستنهضُ الميْتَ من رَمْسِه (١)
حوافر خيل الزمان المُشِتِّ
تكاد تحدث عن بؤسه
وتلك العناكبُ مَذْعُورة
تريد التفلُّتَ من حبسه
لقد تعبت منه كف الدمار
وباتت تخاف أذى لمسه
هنا ينفض الوهم أشباحه
وينتحر الموت فى يأسه

إنه يتحدث عن دوامة الوجود ، وحركة العدم المصاحبة ، ينقلها إلينا عبر كناية لطيفة فى قوله : « أعاليه تبحث عن أسه » ، إن وَهْمَ الرفعة والعلو الذى يخدع الإنسان فى أنه قهر ناموس الأشياء بتشييده وبنائه ، سرعان ما يتهاوى ويسقط وينهار ، ويصبح رمادًا تذروه الرياح ، يتساوى مع الأساس الأول ، وكأن الشاعر هنا يرمز إلى إنكار وهم الرفعة والعلو ، لأن الإنسان ـ بطبيعته ـ غير قادر على تعديل الأشياء أو تبديلها ، فإذا غفل الزمان حينًا فإنه سرعان ما عاد وهدم كل وهم ابتناه الإنسان . . إن

(١) رمسه : الرمس ، تراب القبر .

حاضر الشاعر سيمسى مثل هذا الصرح ، طللاً باليًا وبقايا أنقاض ، فكأن السعادة استحالت أشلاء . إن العطب ينفث سمه المكتوم فيمن يقيمون بالصرح ويتوهمون أنهم فى مأمن من غوائل الدهر ، لأن الزمان فارس يعدو بلا توقف لا يعوقه عائق ، واستخدام هذه الصورة مأخوذ من البيئة العربية القديمة ، التى تناول شعراؤها الخيل فى شعرهم ، لأنها كانت أظهر وسيلة فى حياتهم . لقد استعار أبو ريشة ذلك من ذاكرته ، دون أن يدخل فى إطار التقليد ، وذلك بأن مزج الفكرة بمعاناته ، وكثفها فى رؤيته الشعرية . غير أن الوهم الشعورى الذى يغلب على الفكر الرومانسى هو الذى جعل شاعرنا يتحدث عن العناكب المذعورة ، التى تسعى إلى الهرب ، لأنها لا تطيق الوحشة الماثلة فى هذا الصرح . وهل للعناكب شىء من هذا ؟ لا وإنما اتخذها الشاعر ذريعة للتعبير عن نفسه من خلالها ، والعنكبوت رمز للمكان الموحش المهجور ، لأنه لا يقيم فى الأماكن المأهولة بالناس والحياة .

والرمز ـ على هذا ـ معبر بذاته ، لولا ما داخله من افتعال بديعى كان شائعًا هذه الفترة ، فالشعر يحمل قيمة تعتمد على اقتناص الحقيقة ، وليس على الإبهام وحده ، فإن تفلُّت العنكبوت مثَّل أجواء الحقيقة ، ولكنه لم يفصح عنها ، مما جعل الشاعر مقيمًا فى تخوم الرؤيا الحسية دون الولوج إلى حرمها .

إن الشعر ـ وحده ـ هو الذى يستجلى الحقيقة ، ويجعلها حاضرة ، أمَّا ما دون ذلك فهو يحوم حولها ، أو يلتقط أجزاءها أو يصفها ، أو يدور حول مظاهرها ، دون أن تكون هناك قدرة على التوحد معها والنفاذ إليها .

هذا مَلْمَحٌ من شعر أبى ريشة ، أَرَدْنَا به أن نضع إبداعه وسط الأجواء التى كانت سائدة فى عصره لنتبين ـ فيما بعد ـ مكانه بين مبدعيها . وليس جديدًا أن نقول إن الشاعر العربى اعتزل الحياة السياسية فى ظل تيار

الرومانسية ، ودارت عناوين دواوين الشعراء حول عبارات من مثل « الملاح التائه » ، « الألحان الضائعة » ، « وراء الغمام » ، وكلها عناوين حالمة شاردة ، تجوب عوالم الحب والطبيعة ، والموت والحيرة والتمزق .

والشاعر العربى ـ الذى اعتزل وهام فى حلم شارد ـ هو الذى رأيناه بعد الحرب العالمية الثانية ، يندفع بكل طاقاته وأبعاده إلى ضراوة الصراع المذهبى العالمى ، والقضايا الوطنية القومية فى الوطن المحلى ، أو الوطن العربى ، بل ويهتم بقضايا الإنسان فى كل مكان ، متخطيًا الحواجز والحدود ، والأبعاد والمسافات ، إلى مفهوم إنسانى شامل لا يفرق بين وطن ووطن ، وجنس وآخر . ولا شك أن الشاعر العربى فى هذا التحول الفنى والفكرى قد تأثر بعوامل عديدة ، أهمها ضراوة الصراع المذهبى العالمى ، والمحاورات السياسية والفلسفية فى أجهزة الإعلام العربية ، والقضية الفلسطينية وما خلّفته من جراح فى أعماق الإنسان العربى ، وتحرر بعض الشعوب العربية من نير الاستعمار ، وما تطلّبه ذلك من الدخول فى معارك ، كان حصادها انتصار الشعوب ، وحصولها على حقوقها .

هنا دعا النقاد إلى مبدأ الالتزام فى الأدب ، الذى لقى صَدًى بعيدًا فى أوساط الشعراء العرب ، اختلفوا حوله بين مؤيد ومعارض ، فكان الدكتور طه حسين ممن هاجموه ، وأعلن أنه من أنصار الحرية المطلقة . أما مؤيدو الالتزام فكانوا متأثرين بالدعوة إلى المشاركة فى مشكلات المجتمع المعاصر ، إلى جانب الاهتمام بمضمون العمل الأدبى ، لأن فى ذلك أثرًا كبيرًا فى التوجه الاجتماعى ، أما المتعة الفنية فى الأدب فهى وسيلة لغايات إنسانية فى تحرير الإنسان .

عبر هذا المناخ كان شاعرنا « عمر أبو ريشة » ، وبداخله عاش وشارك بما سوف نعرض له فى الصفحات التالية .

سرت دعوة جريئة إلى تطويع الإبداع الشعرى للجانب الاجتماعى ، حتى أصبحت حديث المنتديات الأدبية ، وبرغم سلامة هذه الدعوة ، وصدق الإيمان بغايتها ، فإنها استخدمت تعبيرات هلامية تحرم الفن الأدبى الشعرى من أهدافه العظمى ، وهى التعبير عن الذات الإنسانية فى أحوالها كافة ، ومنها الجانب الاجتماعى طبعًا . إنهم يستخدمون عبارات « الأبراج العاجية » ، و « الهروب من الواقع» ، و «الشعراء الذاتيون » . . . إلى آخر هذه العبارات التى لم تحمل مدلولاً محددًا ، مما خلق اضطرابًا شديدًا فى استخداماتها .

ولقد لقيت هذه الدعوة ـ برغم انتشارها ـ نقدًا شديدًا من أكثر من اتجاه : الفنى ، والإنسانى ، والوطنى ، والجمالى ، فهى لا ترتكز على أسس فنية شعرية ، فالدعوة إلى اجتماعية الشعر تتجه نحو الموضوع فيه ، وتجعله الغاية الوحيدة ، وتنحى جانبًا بقية المقومات ، كالفكرة ، والبناء ، والصور، والموسيقى الظاهرية والخفية ، وهو ما يخالف ـ بداهة ـ مفاهيم الشعر . إن كل موضوع يصلح للتناول الشعرى ، سواء أكان حولَ مشاكِلنا القومية ، أم منظرًا طبيعيًّا ، أم مناوشة كلامية بين متشاجرين ، والمهم هو أسلوب التناول . ثم إن هذه الدعوة تمتد لتحدد مجال الموضوع ، فالشاعر إذا لم يتناول موضوعات قومية اتهم فى وطنيته ، وأصبح زائفًا فى إبداعه ، لأنهم ـ أى أصحاب هذه الدعوى ـ يرفضون الاستجابة لجمال وردة ، ويهملون نبض

الحب الساذج ، أو الشعور بأزمة نفسية يعانيها إنسان ، ويرون فيها تفاهة وإسفافًا . إنها بهذا دعوة إلى تجريد الشعر من العواطف الإنسانية .

ثم إن ذلك يجرنا إلى سؤال : ما هو الواقع الذى يعنيه أصحاب هذه الدعوة ؟ أليس حياةَ الناس بما فيها من صخب وضجيج ، وألم وضحك ، وتفكير فى العواطف والآمال والهموم ؟ إن المجتمع يترك بصمته على الفرد إجبارًا لا اختيار فيه ، بحيث تصبح هذه البصمة وسمًا طاغيًا لا يملك الفرد أن ينجو منه ؛ لأنه نشأ فى مجتمع شَكَّلَ انطباعاته البصرية والسمعية والذهنية ، ثم إنه واحد من أفراد هذا المجتمع ، لا يستطيع التهرب من طابعه العام .

إن الوطنية فى مفهومها العام لا تعنى الكفاح السياسى ، وهى أيضًا لا تعنى حب الوطن فحسب ، لأن فى هذا نسيانًا للوظيفة الأساسية لمعظم الناس فى كل بلد ، وهى إعالة أسرهم ، والارتفاع بالمستوى الاجتماعى ، وتهذيب الأبناء ، والانصراف إلى العمل بطاقة تتناسب مع قدراتهم العقلية والجسمية ، وليس هذا أقَلَّ تقديرًا من الكفاح السياسى الذى يقصرونه على معنى الوطنية .

والشعر ـ كواحد من أجنحة الفن ـ يعبر عن هذا كله ، ويملك فى حياتنا الإنسانية ما يشحذ ملكات الإنسان ، وهو يمثل عامل الخير فى حياتنا العربية منذ انطلقت عبارة « الشعر ديوان العرب » ، فهو يتناول كل جوانب النشاط الإنسانى ، ثم يمتد ليتناول فكرة الموت كظاهرة إنسانية لافكاك من أن تكون مصير كل إنسان ، وهو بهذا ـ أى الشعر ـ تمهيدٌ للنظر فيما بعد الحياة ، حتى لا تفجأه النهاية دون أن يعلم ـ والمحيطون به ـ هذا الذى يأخذ إنسانًا من أهله ، وإلى أين ؟ مع سائر التداعيات الاستفهامية المتعلقة بفكرة الموت ، والتى تتوسع معها دائرة الشعر ، فيأتى الهتاف كما

أرسله الشابى وهو ينازع أيام احتضاره :

جف سحر الحياة يا قلبى البا كى ، فهيا نجرب الموت هيا

إنه موقف شاعر تجاه الموت ، يخالف الموقف المعتاد ، فهو يقبل على الموت باختياره ، لأنه يتأمله كفكرة قبل أن يأتى إليه ، ويستخدم لذلك لفظة نجرب ، لا للاستعراض اللفظى ، وإنما للدلالة الإيجابية على الاستعداد لبدء رحلة جديدة . ومع هذا فإن الشاعر عندما يستشرف الموت كتجربة لا ينسى أن يتحدث عن تجربته فى الحياة ، فهو مخلوق ليجرِّب ، وتجربته مدعومة بوعى كامل ، وعقل متأمل ، يقول عمر أبو ريشة :

صوت ينادينى وفى مسْمَعِى منه أغانى حُلم ممتع
من أين ؟ لا أدرى ولكننى أصغى وهذا الليلُ يصغى معى
أُختاه . . إنى راحلٌ فاهدئى وزوِّدينى بالرضا ، واهجعى

إنه بتأمله يرى الأجيال السابقة كلها ، كيف يراها ؟ إنه يراها من خلال رؤيته التأملية ، فهو يودع أناسًا إلى العالم الآخر ، ثم إنه يقرأ تاريخهم ، فهم ماثلون أمامه صفحات مكتوبة تاريخيًّا ، سواء أكان ذلك فى العقل بالاسترجاع ، أم بالتأمل والوعى بطبيعة الحياة والموت . إنه يقول :

قوافل الأجيال قد لـوَّحت تومىء لى من أفق أوسع

إن الإيماء إليه هنا هو الاسترجاع عن طريق التجربة المقروءة أو المتأملة . ثم إنه يقول :

أنا الذى ذوَّب أوتاره وصبَّها برءًا على الموجَع

إلى أن يقول :

كم أمنياتٍ عِفْتُ أعراسَها مآتما تُعْول فى مخدعى

إنه مريض ، ومُقبل على الموت كتجربة جديدة ، ولكنه ـ مع هذا ـ يدون دوره فى الحياة ، ويتصور أنه دور متفرد ، يقول :

هيهات !! لن يسمع هذا الدُّجَى ... بعدى حنينَ الوتر الطيِّع
ولن ينام الحب فى مهده ... على صلاة الشاعر المُبدع
قُبَّرة فوق ضلوع الضحى ... غنَّت وولَّتْ ، ثم لم ترجع

لقد نظم الشاعر أبو ريشة هذه القصيدة عندما ألم به المرض ، متوقعًا أن النهاية اقتربت ، ولذا تضمنت معاناة الوداع . إنه يسمع صوتًا غامضًا . . نداء لا يدرك مصدره ، إنه نداء الزوال يفد إليه كسائر الرومانسيين ، فلا يُجزعه ولا يُفزعه ، بل إنه يطربه كأنه نشيد يتردد على لسانه ، أو رُؤَى حُلم جميل يوشى عالمه ، لماذا ؟ لأن الرومانسى يتمثل السعادة فى أجواء الحلم ، فى جو أثيرى قد يناقض الواقع ، وقد يكون قريبًا منه . . وغبطة الشاعرتتحقق لدى ارتحاله إلى الحلم ، لأنه العالم الذى لا يضع شروطًا للشوق ، ولا مسافة فيه بين القوة والفعل . تقف فيه الأمنية صامدة لا تخذل ولا تخيب .

ولماذا يفرح الشاعر الرومانسى للموت ؟ إنه يفرح وفى غبطته ما ينم عن تبرمه بالحياة إثر وقوفه على حقيقتها ؛ ولذا فإنه يؤثر الرحيل إلى عالم يتسم بالكمال والطواعية والاستجابة . فالموت إذن من وجهة نظر الرومانسى هو المعْبر إلى الوطن الحقيقى ، الوطن الخيالى الذى هو أولى من هذا الوطن الزائف .

وللرومانسى علاقة خاصة مع الليل ، إنه يألفه ويأرق معه ، بعد أن تسكن ضوضاء النهار ، وهنا يكون الشاعر مالكًا للكون ، وكأنما لا يوجد عليه من الأحياء إلاَّ هو . . من خلال هذا نقول إن « أبا ريشة » أشرف على تجربته الرومانسية بذاتية تغلبت على الجانب الموضوعى فى التجربة ، ومن ثم

جاءت الصورة الشعرية عنده طريفة جذابة ، وإن كنت ممن يميلون إلى ضرورة أن تحمل هذه الصورة جانبًا من الجدية والنفاذ مع قليل من الانسياح فى السراب . إن قاموس الشاعر الرومانسى يَحمل ألفاظًا نابعة من شعوره الخاص ، تأسر لُبَّهُ ، من خلال كونه محور الكون ، ولذا فإن الأجيال ـ فى القصيدة التى أشرنا إليها ـ تلوِّح له من الآفاق .

لقد اعتزل أعراس الحياة ، لأنه فى لحظة الوداع ارتد إلى ماضى عمره ، وأحصى رصيده ، فوجده هزيلاً ضئيلاً ، ولذا عف عن التلذذ بمتع الوجود، وساقته مشاعره إلى احتقارها ، لأنها بلا طائل ، ومن ثم فإنها تتحول إلى مأتم من الندم والحسرة .

إنه يرى ـ أيضًا ـ أن مَنْ يُقبلون على شهوات المال والجاه والسلطة هم الحمقى والزائفون . تجلى كل ذلك فى هذه القصيدة :

صوت يناديني وفي مَسمعي ... مِنه أغاني حُلم ممتع
من أين ؟ لا أدري ولكنني ... أصغى ، وهذا الليل يصغى معي
أختاه . . إني راحل فاهدئي ... وزوِّديني بالرضا واهجعي
قوافل الأجيال قد لوحت ... تومىء [1] لي من أفق أوسع
أنا الذي ذَوَّبَ أوتاره ... وَصَبَّها بردًا على الموجع
لي من حنايا سِدْرَة المنتهى ... مُتَّكئي ـ إن شئت ـ أو مضجعي
لا يا ضلال الروح لن أكتسي ... منك جناحَيْ حلم مفجع [2]
كم أمنيات عِفتُ [3] أعراسَها ... مآتما تُعْول في مخدعي
وكم نشيد مسْكر في فمي ... قاطعته ، فانهلَّ في أدمعي

(١) تومىء : تشير .
(٢) مفجع : محزن .
(٣) عفتُ : كرهتُ .

حسبـى إذا ألقيت طَـرْفى علـى ... أمسى صدمت القلب بالأضلع
هيهات ! لن يسمع هـذا الـدُّجَى ... بعـدى حنينَ الـوتـر الطيِّع
ولـن ينـام الحُـبُّ فـى مهـده ... علـى صـلاةِ الشاعِـرِ المبـدع
قُبَّـرةٌ فـوق ضلـوع الضُّحَـى ... غنَّت ، وولَّـت ، ثـم لـم ترجـع

زاوية الرصد :

يتشكل الموقف الأدبى من خلال أدوات فنية خاصة ، باعتباره « قيمة مثالية روحية تبعد عن القيم النسبية ، لتقترب من القيم المطلقة التى تعلو على واقع الزمان والمكان » (١) . وتكاد تنحصر أدوات التشكيل فى المعجم الشعرى الذى يمتاح منه الشاعر ، والصورة الشعرية التى يحاول من خلالها أن يحدث التأثير فى نفسه أولاً ، وفى القارىء ثانيًا ، ثم موسيقى الشعر ، وهى التى تخلق التجاوب بين ما يتناغم فى نفس الشاعر ونفس المتلقى . ويأتى ختام ذلك لتكون الوحدة الفنية التى تجمع كل هذه الخيوط ، والتى يبدو من خلالها الركن أو الزاوية التى رصد منها الشاعر تجربته ، فقد يكون الموضوع واحدًا ، ولكن زاوية الرصد تختلف من شاعر لآخر . وهذا هو العنوان المتشابه : « البلبل » ، والذى تناوله شاعران ، هما الشاعر حسن كامل الصيرفى (٢) ، والذى يقول فى قصيدته :

الـربيـع الطلـق قـد آب ولكنـى مهيـض
لـم يضق وكـرى ، وقد ضـاق بـى الكـون العريـض
جـدول الرحمـة فيـه أوشـك الآن يغيض
إن فـى الـوكـر هنـاءات يـلاشيهـا النهـوض
أنا إن غردتُ ، أو نوَّحت ، هـل يغْنى القريض ؟

(١) ساعات بين الكتب / عباس العقاد / ص٤٢ / مطبعة السعادة بالقاهرة .
(٢) ديوان : صدى ونور ودموع / ص٦٢ .

إن زاوية الرصد هنا تبين أن البلبل فى وكر واسع ، لم يضق به ، ولكن الكون العريض ضاق به . . المكان الضيق واسع ، والمكان الواسع ضيق . . هى رؤية على أية حال .

والشاعر الثانى هو شاعرنا « أبو ريشة » موضوع هذه الدراسة ، والذى يقتضى تناولنا له أن نتحدث عن قصيدته « البلبل » بشىء من التفصيل ، الذى يشى بأن رؤيته كانت أجمل من الصيرفى ، وكذلك حبكة القصيدة :

حُلْمٌ تخلَّى عنه فى رَغْدِه ... هل يقدِرُ النَّوْحُ [1] على رَدِّه ؟
لو يعلمُ الصياد ما صيدُه ... لم يَجْعَلِ البلبلَ فى صَيْدِه

* * *

ألفيتُه ينثر ألحانَه ... كأنَّما ينثر من كِبده
وإلْفُهُ المشفقُ ظِلٌّ له ... باقٍ كما كان على عهده
مُدلَّه اللَّفتات [2] ، مستوحشٌ ... طاوٍ جناحيه على وَجْده [3]
كم أطبقت منقارَه غُصَّةٌ [4] ... فمدَّه ينقر فى قَيْده
أسْقَمَهُ العيش علَى وَفْرِهِ ... لما رآه ليس من كَدِّه
وأين مخضلُّ الجَنى [5] حوله ... من زنبق [6] الروض ومن وَرْده ؟

* * *

طوى المنى نَوْحًا ولكنما ... لم يُغْنِهِ النَّوْحُ ، ولم يُجْدِه
فعافَ دنياه [7] ولم يتخذ ... عُشًّا ، ولم يحمل سوى زُهْدِه [8]

---

(١) نوح البلبل : سجعه .
(٢) مُدَلَّه اللفتات : المدله الذى ذَهَبَ العشق أو الهم بعقله .
(٣) وجْده : الوجد هو الحزن .
(٤) غُصة : الغصة ما يقف فى الحلق ويعترضه .
(٥) مخضلُّ الجنى : الثمر الندى .
(٦) زنبق : الزنبق نوع من الزهر .
(٧) عاف دُنياه : كرهها .
(٨) زهده : الزهد الانصراف عن الشىء وعدم الرغبة فيه .

كأنه مـن طُـول ما مَضَّـه (٩) من عَبَثِ الدهـر ومن كَيْـدِه (١٠)
أَبَـى عليـه الكِبر أن يُـورث الأفراخَ ذلَّ القيد من بعده

لقد حاول الشاعر فى هذه القصيدة أن يعبر عن مأساة الطير السجين ، الذى أُودِعَ قفصًا ، وجعل أُنثاه إلى جنبه فيه ليأنس بها ، إلاَّ أنه بدا حزينًا ، يطوى جناحيه على بؤس ، ينقر قفصه كمن يسعى إلى الفكاك من قيده ، ولما عجز عن الوصول إلى غايته كفَّ عن التناسل ، كأنما كان امتناعه هذا انتحارًا وجدانيًّا ، فقد قتل ذاته فى الامتناع عن التناسل .

إن الموضوع رومانسى فى زاوية رصده ، أو نقطة انطلاقه ، التى تمثل رمزًا للحرية ، والبلبل الذى لا ينسل فى قفصه إنما يتحرك بحركة الغريزة الصماء ، فهى التى تحركه بدلا من أن يحركها . إنه هنا لا يُصدر عن إرادة واختيار . فالبلبل يشبه الذئب الذى وصف « الفريد دى فينى » مقتله ، فكلاهما يؤثر الصمت أمام ضربات القدر . البلبل ينتحر من الداخل . . يعطل غريزة الحياة فيه ، والذئب يموت مخضبًا بجراح الكبرياء ، فالصمت المكتوم هو السبيل الوحيد لصيانة الكرامة أمام شراسة القَدَر وسادِيَّته المنكرة . ويأتى الربط السياسى بين فكرة القصيدة ورمزها ، وبين الحرية المنشودة آنَ ذاك . لقد استقبل الشاعر حياته ومن حوله أُمَّة ثائرة على الاستعباد التركى ، تتطلع إلى الخلاص من نيره ، وما تكاد تفلت منه حتى تعثر بها الطريق ، فيدركها الاستعمار الغربى بويلاته .

ويدخل الشاعر منذ صدر شبابه فى غمار هذه الأحداث متحمسًا ثائرًا ، ويعرفه زملاؤه شاعرًا ، وخطيبًا ، ومؤلفا مسرحيًّا ، يتجه بكل قلبه وعقله لنصرة العرب والدّفاع عنهم . وسيرته تشير إلى نهجه القومى ، فقد انتخب

(٩) مضَّـه : أحـزنه .
(١٠) كيده : الكيد ما يصيب الإنسان من مكاره .

عضوًا مراسلاً فى المجمع العلمى العربى سنة ١٩٤٨ ، وفى العام التالى عُين ملحقًا ثقافيًا لسورية فى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية . وفى عام ١٩٥٠ عُين سفيرًا لسوريا فى البرازيل ، فالأرجنتين ، فشيلى ، ثم سفيرًا للجمهورية العربية المتحدة ـ إبَّان الوحدة بين مصر وسورية ـ فى الهند ، ثم النمسا[١] .

لقد اتصل بالعمل السياسى ، وتمثل مأساة الاستعمار وجنايته على الشعوب ، وقتْله نوازعَ الحرية ، التى لا يتسنى بدونها انطلاق الفكر ، وخصوبة الإنتاج . وكانت نفسه ممتلئة بآثار الصراع الدامى للاستعمار فى أنحاء الوطن العربى .

والقصيدة الرمزية « بلبل » تدور حول ثلاث فِكَر أساسية : أولها حلم البلبل الذى ذهب السجن به ، وثانيتها عن حياته فى قفصه ، وثالثتها عن زهده فى حياة المَذَلَّة والأَسْر ، وفى أن ينسل لمثل هذه الحياة .

وقد عرض الشاعر فكرته الأولى فى بيتين ، يذكر فيهما أن البلبل كان يعيش فى حُلم جميل ، ولكن حلمه ما لبث أن تبدل حين صحا على يد صياد تقتنصه من الفضاء الرحيب ، لتلقى به ضيفًا فى الأَسْر ، فكان البكاء الذى لم يردَّ عليه حُلمه الضائع ، ولو أن الصياد كان رقيق الحس ، ذا عقل يميز بين أنواع الطير ، لَمَا جَعَلَ البُلبلَ من صيده ، لجماله ورقته ، وأغاريده العذبة الشجية فى ظلال الحرية .

إن كلمة (تخلى) فى البيت الأول توحى بانفصاله عن حلم كان فى نشوة به ، وشغف شديد ألاَّ يصحو منه ، كما أن كلمة (رغده) تجسم واقع الألم فى نفس البلبل ، وفى الشطر الثانى من البيت استفهام يحمل معنى النفى ، ويحمل معه ظِلاًّ من الكآبة لعجز النوح عن رَدِّ أمل يتعلق به صاحبه .

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ـ ط ١٩٥٩ ـ ص ١٢٣٦ (حرف العين) .

ويأتى البيت الثانى مرتبطًا بالبيت الأول ، لأن جهل الصياد بحال الطير الذى يصيده ، وما يمتاز به ، كان السبب فيما ألَمَّ بالبلبل من سجن وحرمان . وأداة الشرط « لو » بما تدل عليه من امتناع تساعد على إبراز هذه الفكرة .

والفكرة الثانية فى القصيدة : تصوير حياة البلبل فى قفصه ، يعرضها الشاعر فى أبيات خمسة ، تتعاون ألفاظها جميعًا بإيحاءاتها ، مع الصور فى التعبير عن الجو النفسى ، وجميل أن تقف منها عند « أسقمه العيش » ، لنرى أن العيش الذى هو مصدر الحياة قد صار مصدر سقمه . وعند قوله كذلك : « لما رآه ليس مِنْ كَدِّه » لنكشف عن منبع آخر للألم فى نفس البلبل السجين .

أما الفكرة الثالثة : وهى « زهد البلبل فى حياة المذلة والأسر » ، فقد جاءت فى أبيات أربعة ، ينتهى فيها الشاعر إلى ما قاله الجاحظ : البلبل لا ينسل فى قفص ، وكأنَّ فى هذا رمزًا إلى أن الحياة التى لا تحميها الحرية لا خصب فيها ، ولا سعادة ، ولا استقرار ، سواء أكانت فردية أم جماعية .

نرى من خلال هذا العرض أن « أبا ريشه » كان حريصًا على تحقيق الوحدة العضوية أو الفنية لأعماله الفنية ، والتى تُعَدُّ من أهم السمات الجديدة التى تميز القصيدة الرومانسية ، وكان مطران خليل مطران (١٨٧١ ـ ١٩٤٩ م)أول الداعين لتطبيقها فى العصر الحديث ، منذ أن نشر مقالا فى المجلة المصرية سنة ١٩٠٠ يلفت النظر فيه إلى ظاهرة تفكك القصيدة لعدم ارتباط المعانى التى تتضمنها ، وفقد التلاحم بين أجزائها ، والمقاصد العامة التى تقام عليها أبنيتها [١] . وقد امتدت فكرة الدعوة إلى الوحدة

(١) انظر : النقد الأدبى الحديث / د . محمد غنيمى هلال / ص ٤٠٣ / ط دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٣ م .

الفنية بعد مطران ، طوال الثلث الأول من القرن العشرين ، فيما كتبه عبد الرحمٰن شكرى ، والعقاد ، ومطران فى مقدمات دواوينهم ، وفى كتاب العقاد والمازنى « الديوان فى الأدب والنقد » ، إلى أن استقر مفهوم هذه الوحدة فى أن أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ، تسلسلاً فى التفكير والشعور .

ولقد أحسن « أبو ريشة » فى رسم الصورة ـ فى قصائده بعامة ، حيث إنها ـ أى الصورة ـ تمثل ثمرة الجهد الذى يبذله الشاعر لتحقيق التآزر بين الجزئيات التى تبدو فى الظاهر عديدة متنوعة . فعنوان القصيدة أيضًا يُعدُّ جزءًا لا ينفصل عن وحدتها الفنية . فالتجربة الشعرية فى قصيدة « بلبل » تحمل موضوعًا واحدًا ، تتسلسل فيها الفكرة من الحديث عن الحلم الضائع بالوقوع فى يد الصياد ، إلى الحديث عن حياة الأَسْر بكآبتها وآلامها ، ثم إلى النهاية التى انتهى إليها أمر البلبل . ولقد حقق هذا التسلسل تناسقًا لا تناقض فيه ولا اضطراب .

وأتى دور الموسيقى التى اعتمد عليها الشاعر فى النص ، وقافيته التى تنتهى بهاء مكسورة ، وبنغم فيه أنين محدود ، يلتقى مع الجو النفسى الذى يشيع فى النص .

لقد جاءت هذه القصيدة بسيطة فى تعبيرها ، عميقة فى دلالتها شأن شعراء المدرسة الرومانسية ، التى كانت تُؤْثر الكلمات الواضحة الدلالة ، وتهتم بالنفس الإنسانية فى صورتها البسيطة ، يسبرون أغوارها ، ويعبرون عَمَّا تحسه هذه النفوس فى دقة ووضوح[1] .

وتلتقى هذه الفكرة مع ما قاله وردز ورث : « إن الشعراء لا يكتبون للشعراء وحدهم ، وإنما يخاطبون الناس بشعرهم ، ولذا فقد وجب على

(١) انظر : دراسات أدبية / عمر الدسوقى / ص ٢٣٤ .

الشاعر أن ينزل من عليائه المزعومة ، لكى يثير عاطفة مبصرة ، يُعَبِّرُ من خلالها عمَّا يدور بداخله ، على النحو الذى يلتقى مع ما يدور بنفوس الناس» (١) .

لقد كانت الحرية هدفًا وضعه الرومانسيون نصب أعينهم ، وسعوا بالشعر إلى تحقيقه ، وهذا ما جعلهم يشعرون بالاغتراب عن واقعهم ، بل إن هذا الإحساس بلغ درجة عالية تصل إلى حد يمكن أن يكون مرضًا ، لأن الفرد قد عظم إحساسه بنفسه ، واستفحل فيه الطموح ، فى حين ضعفت إمكانات الحياة من جهة أخرى ، أو قُلْ : لم ترتفع إلى مستوى الطموح الفردى ، فكان التصادم عنيفًا ، وكان الألم ممضًا (٢) .

إن « أبا ريشة » يعانق الحرية ، معانقة الباحث عن الخلاص ، لأنها تحقق أحلام البراءة التى تغلف مشاعر الناس ، ثم إنه فى بحثه عن الحرية يبعد عن الهموم الميتافيزيقية ليدخل ساحة الواقع ، يتقمص معاناته ، ويبحث عن المصير الذى يحقق الحرية ، بعيدًا عن صخب الخطابة ، واحتقان الألفاظ ، وإغراب الصور الشعرية .

(١)وردزورث / الشعر وألفاظه / ص ٣١ ، ٣٢ / من كتاب د . زكى نجيب محمود: قشور ولباب .
(٢) محمد مندور / الأدب ومذاهبه / مطبعة مصر / ص ٦٨ .

تحتل وجدان أى عصر موجة أدبية ، تطبع شعراءها ، وتجعل بينهم قاسمًا مشتركًا ، مع تفرد بعضهم بشىء من الذاتية ، قَلَّ أم كَثُرَ .

والعودة بالذاكرة إلى ثلاثينيات هذا القرن ، لاستكشاف أبعاد الشعر فيها ، أو رصد قيمته الفنية والأدبية ، تصيب الإنسان بالأسى ، لأن فترة من زمان هذه الأمة ضاعت ، أو ضيعها الشعراء دون أن يدركوا غايةالشعر ، ووسائل الإبداع فيه . فقد يحدث أن يطلع متبصر على ديوان شعر فلا يملك إلا أن يضرب كفيه أسَفًا على ما أنفقه هذا الشاعر من وقت فى نظم هذا الكلام . إن القيمة عندئذ تكمن فى الابتكار ، لا فى إحداث الإبهار الخطابى ، والتزويق اللفظى اللذين لا جدوى من ورائهما .

وتجربة شاعرنا أبى ريشة تبدو به زعيمًا للشعر والتجديد فيه فى مرحلته ، أمَّا إذا طبقنا عليه ما آلت إليه قواعد التذوق النقدى المعاصر فإننا نجد أن وسائله تقصر عن مسايرة ما آل إليه التوجه الشعرى ، مشاعرَ ورُؤى ، وبذلك يتضاءل رصيده فى بداياته ، ويعظُم فى مطلع هذا القرن . هذا الحكم هو الذى يمكن أن يصل إليه الناقد لدى قراءة ديوان عمر أبى ريشة ، فإذا أمعن النظر إلى ما بداخله اكتشف بعض التجارب الحَرِيَّة بالاهتمام والمدارسة ، حيث إنها تحمل صدق المعاناة ، وجدية المضمون

الإنسانى ، فهو لم ينبهر بالوقوف أمام المظاهر ، والنظر إلى ما تقوله الحواس. إنه ـ مثلا ـ لم يقف من المرأة موقف المشْدُوه ، ولم يلجأ ـ لدى الحديث عنها ـ إلى تشابيه جف معينها بالتداول والتسابق عليها . كما أنه لم يستخدم استعارات قديمة ليعيد طلاءها ، ويخرج بها مخرجًا جديدًا ، لأنه أدرك أن الجمال الحسى للمرأة فى الشَّعر والثغر والخد والقد ، إنما هو مظاهر خارجية لا شأن لها بالحقيقة إلاَّ بما تحدثه من دلالة على الانسجام والتآلف فى رفق وحنان ، أو بمقدار التفوق فى تهذيب الذات والارتفاع بها .

إذا كان الجمال مقصورًا على حُسن الملامح وتناسقها ، فإن التماثيل والدُّمَى تدخل المباراة إذن ، وذلك إذا خلت الملامح وحسنها من روح جذابة تسرى بين أوصالها . إن جوهر الإنسان فى روحه ونفسه وعواطفه بعيدًا عن السطح الخارجى .

لقد تصادف أن يواكب شاعرنا فترة كان فيها الأخطل الصغير وشوقى وحافظ ومطران ، إلى جانب شعراء المهجر . . حيث كانت هذه الكوكبة تملأ وجدان الشاعر بقصائد متعددة الموضوعات ، تستعيد المعادلات القديمة للتشبيه ، مع قليل أو كثير من التوليد فى اللفظ أو الصورة أو هما معًا .

الوطن :

لقد نما الوعى القومى فى العصر الحديث ، وظهرت نزعات الدعوة إلى الحرية نتيجة لعوامل عديدة ، منها الاتصال بالحضارة الأوربية ، والاطلاع على أساليب الحياة فى أرجاء تسودها مبادىء الحرية والعدالة والمساواة ، وكذلك كان لظهور رواد الإصلاح الدينى والاجتماعى أثر كبير فى نمو هذا الوعى بالانتماء ، من خلال دعوة كل من جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمٰن الكواكبى ، أضف إلى ذلك انتشار الصحافة ووسائل

الإعلام التى حركت الوعى القومى فى الأمة العربية ، وزادتها بصيرة بحقها فى الحياة والحرية والرخاء . كما كان ثمة أثر كبير لقيام القادة والمصلحين والزعماء بالثورة على الاستعمار وأعوانه ، والتخلص من الموروث الذى يدعم التخلف والجمود . . كل ذلك دفع الوعى القومى بتياريه السياسى والاجتماعى إلى الطريق الصحيح ، ليأخذ الإنسان العربى مكانه تحت الشمس ، متعاونًا مع بنى الانسان دون تعصب أو خوف .

هذه الخلفية كانت البيئة الأدبية التى مكنت الشعراء العرب من التعبير عن أنفسهم تجاه قضاياهم القومية والوطنية ، ودفعت بالأدب ليساير اليقظة والوعى ، ويتفاعل معهما تأثر وتأثيرا ، فتجاوبت أصداء إبداعات الشعراء والكُتَّاب والخطباء فى أرجاء الوطن العربى . . يقول نجيب حداد :

آن الأوان لأنْ أُخَاطِرَ بالدم ... من لم يُخاطِرْ بالدِّما لم يَسْلَمِ
أ جزيرة العرب التى أحببتها ... كم مِنْ أَكُفٍّ قد رَمَتْكِ بأسْهُمِ
لعبت أكف الترك فيكِ فغادروا ... فى كل قطر فيك نهرًا من دَمِ

ويقول :

لكننا غرض للشر فى زمن ... أهل العقول بـه فى طاعة الخمل
قامت بـه من رجال السوء طائفة ... أدهى على النفس من بؤس على قطل

وهذا الكواكبى يكتب ضد الاستبداد فيقول : « كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعًا لله ، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنَعَّمين ، مغموسة بدماء الأحرار» .

وهذا عبد القادر الجزائرى (١٨٨٣م) يقول معلنا ثورته على الفرنسيين :

وأبذلُ يومَ الرَّوْع نفسًا كريمةً ... على أنها فى السلم أغلى من الغالى
وعنِّى سَلى جيشَ الفرنسيس تعلمى ... بأن منايا هم بسيفى وعَسَّالى

ويقول إبراهيم اليازجى « استفيقوا أيها العرب » :

فأسمعونى صليلَ البيض بارقةً ... فى النقع إنِّى إلى رنَّاتها طَرِبُ
لم يبق عندكمُ شىء يُضَنّ بـه ... غير النفوس عليها الذلُّ ينسحبُ

هذه هى الساحة التى امتاح منها أبو ريشة شعره الوطنى ، ساحة يملؤها شعر التراث الوطنى أو الحماسى ، وامتدادًا لها كان إفراز المراحل السياسية التى تعرضنا لها عبر الصفحات السابقة .

لقد كان لأبى ريشة شعر وطنى ، تحلو تلاوته فى المحافل والمناسبات ، بل إنه قد اشتهر به ثم لحق به شعره فى الأغراض الأخرى . وفى هذه الأشعار الوطنية تتوارى الهموم الميتافيزيقية للشاعر الرومانسى ، لأنه يدخل معركة مع الواقع ، وتتلبسه معاناته ، بحثًا عن مصير الوطن ، ومن ثم مصير أبنائه، وكان طبيعيًّا أن تتقلب حالة الشاعر بين الرثاء تارة والسخط تارة أخرى ، والنشوة تارة ثالثة ، تناغمًا مع الباعث على إثارة النغم الشعرى ، والمناسبة التى يقال فيها .

وموقف شاعرنا من قضية « الوطن » يتحرك عبر محورين : محور الماضى وتراثه وزهوه ، وما يدفع إلى التباهى بالكبرياء ؛ كبرياء المنتصر دائمًا ، ومحور الحاضر ـ من وجهة نظر الشاعر ـ بما فيه من تخاذل مُخْزٍ ، وسلبية تثير الحنق . وهنا يصطخب الإيقاع الخطابى ، وتجلجل نغماته ، وتعلو أوتار الوزن ، وتُعتَصَر اللفظة اعتصارًا فى دلالتها القاموسية ، ودلالتها السياقية ، وأدائها الخطابى المرتفع الرنين . إلا أننا ـ مع هذا ـ نلمح فى أداء أبى ريشة الشعرى ، فى المجال الوطنى ـ جمالية مونقة ، بل إنها كانت أثيرة لديه ، ومأثورة عنه . إنه يقول مخاطبًا أُمَّه العرب :

أمتـى .. هـل لـك بين الأمـم
منبـرٌ للسيـف أو للقلـم ؟ !

أتلقـــاك وطـرْفـى مُطْـرِقٌ
خجـلاً مـن أمْسِـكِ المنصـرم [1]
ويكـاد الدمـع يَهْمى عابثًـا
ببقـايـا كبريـاء الألـــم
أُمَّتِـى ! .. كـم غُصَّـةٍ داميـة
خنقت نجـوى عـلاك فـى فمـى
أى جـرح فـى إبائـى راعـف [2]
فـاتـه الأسـى فلـم يلتئـم

إن الباعث الذى دفع لكتابة هذه الأبيات ـ لا شك ـ باعث قومى ، ولابد أن يكون مشتملا على باعث ذاتى ، لأن الإنسان يستمد وجوده الفاعل من انتمائه إلى الأمة والوطن . . يصيبه الهوان إذا هانا ، ويرتدى ثوب الفخار إذا واتتهما العزة والغلبة والنصر . وثمة زاوية يجب لفت الانتباه إليها خلال هذه الأبيات ، ألا وهى شعور الشاعر بانتمائه إلى أمة متقاعسة ، والذى يجعله يشعر بأنه أقل من غيره ، لأن الإنسان كبير بوطنه ، وصغير به أيضًا ، فكأن تاريخ الإنسان هو تاريخ الوطن ، يَرْتَديه الإنسان ثوب فخار أو ثوب خذلان وانكسار .

لقد نظم الشاعر هذه القصيدة إثر هزيمة ١٩٤٨ م ، فبماذا يشعر ، وقد ترسبت فى مخيلته معطيات كادت تأخذ شكل الثبات : تراث خالد لأمجاد زاهرة جعل من الشاعر العربى رب السيف والقلم ، وحاضر يصطدم بمحاولة التوثب التى لا تنتهى إلى شىء ، لقد فقد العرب السيف والقلم ، فسيفهم قد تحطم ، وقلمهم قد انكسر ، إلا من أصوات زاعقة ، لا تمثل إلا

(١) المنصرم : الفائت .
(٢) راعف : (الرُّعَاف) الدم يخرج من الأنف .

نفسها . . إن الإنسان يتقدم بالفكر والبطولة معًا . . وأين شأننا فى ذلك ؟ والمقياس الذى يرضينى لدى الحديث عن الشعر الوطنى هو ألاَّ تعلو فيه نغمة الحماس والنزق ، حتى تبقى التجربة الإنسانية الثابتة التى تعلو بالإنسان ، وتحقق كرامته فى وجوده ؛ لأن جوهر الإبداع عندما يفسد ، يُصاب ساعد البطولة بالشلل ، وتفتقد الأمة مبرر وجودها .

إن « أبا ريشة » يشقى بالمقارنة بين الماضى والحاضر . . الماضى الزاهر الذى كان العرب فيه هامة الأمم ، والحاضر الذابل الذى أصبح فيه العرب رقمًا كاسدًا ، لا يترجم إلاَّ الكسل والخنوع .

كيف ينجب العملاق قَزَمًا ؟

وكيف يرضى صانعو الحضارة والتاريخ أن يكتفوا بفتات الحضارة ، ويرتضوا هوامش صفحات التاريخ ؟

لقد أصيب الشاعر بطعنة فى إنسانيته ، لأن مصير الأفراد من مصير الأمم ، وانتصار الأمم يؤدى إلى زهو أفرادها ، وامتلاء صدورهم بنشوة الفرح . إن رصيد هذه التجربة يتصل بالجانب الإنسانى ، لأنه يرتبط بالصراع الداخلى فى نفس الشاعر بين الإباء والهوان ، بين السعادة والشقاء .

جاءت الصورة الشعرية فى النص موحية من خلال جرح الإباء الراعف ، الذى يمثل الكرامة الذاتية ، ولو هان الشاعر على نفسه لهان كل شىء ، لأن . . مَنْ يَهُنْ يسهلُ الهوانُ عليه ، ومع هذا فإنه لم يمت ، لأن عزيمته لم تتبدد ، ونفسه مليئة بالحياة التى تتطلع إلى المستقبل من خلال إبائه .

إن البعد الذاتىُ والقومى تآزرا فى تشكيل الصورة من خلال الفكرة الواضحة ، لأن الباعث القريب والبعيد للتجربة هو ذلك الحماس الذى

ترفده معطيات الكرامة المتوارثة ، والهوان المستجد الذى أدى إلى غضبة الشاعر . والغضب الذى حاول الشاعر إبرازه كان غضبًا فوارًا ، صائحًا ، ولذا بعد عن الجانب النفسى الذى ينبع من الذات ، لأنه غائص فيها ، ولكونه فياضًا عند الشاعر فقد اختفت معالمه ، إلا من الجانب الزاعق . . ولو أنه تركه يختمر فى نفسه ويدخل فى عناصر تكوينه لاستكمل غايته ، وأدى الدور المنتظر منه ، والشاعر يصرح بهذا فى قوله :

وطـن أذابَ علـى هـواهُ شبابَـه
وحَبَـاه [1] بالمأثـور عـن أشعـاره
المجـد يخجل أن يجيـل الطرف فـى
مـا هـدَّم الجبناء مـن أسـواره
فكـأنـه مـن نِيلـه لفُراتِـه
حَمَـلٌ تجاذَبُـه يـدا جـزَّاره

إنه يعبر بكلمات موحية مثل : المجد يخجل . . يجيل الطرف . . أسواره . أما الصورة فكانت أكثر دلالة ورمزًا على ما يحدث : « حَمَلٌ تجاذبه يدا جَزَّاره » .

* * *

وهذه قصيدة أخرى من شعر أبى ريشة الوطنى ، الذى أخذ اتجاه التأمل بدلا من الاتجاه الخطابى العنيف . إنه يبرر انكسار قومه بأنه ليس نابعًا عن البؤس والفقر ، بل عن الجبن والخمول ، والجديد أنه يتمنى أن تعود الأرض قفرًا إلا إذا أنبتت رجالا يصونون فيها كرامة الإنسان وحق الأرض ، يقول :

كيف نمشى فى رُباها الخُضر تِيهًـا واخْتِيالَا ؟ .

(١) حباه : أعطاه .

وجـراح الـذل نخفيهـا عـن العـز احتيـــالا
رُدَّهـا قفـــراء ـ إن شـئت ـ ومـوِّجْهـا ـ رمـــالا
نحن نهواهـا ـ على الجدْب ـ إذا أعطت ـ رجالا

إن الشاعر لا يسعد بالمال ، إذ إنه لا يجد فيه غاية الوجود ، إنه يسعد بالكرامة ، إنه يطلب البطل ، أو هذا الجانب فى العامل والزارع والشاعر ، وقد أدى ذلك فى شكل صلاة ، دليلا على مرحلة الحيرة التى يمر بها .

أما أسلوبه فى هذه القصيدة فإنه لم يفقد حلاوة العبارة ، برغم اعتماده على بعض التشبيهات والأساليب التقريرية ، وتكاد تشم رائحة شعوره بالمأساة الفلسطينية ـ وإن لم يصرح بذلك ـ لأنها كانت آن ذاكَ ذروة المأساة القومية التى دار حولها كثير من الشعراء ، ونكاد نلمح فى البيت الأخير ما يمثل مركز القصيدة ، أو المغزى منها ، وهو على هذا يمثل مَتْنَها الذى تَئُولُ إليه ، أو هامتها التى تبدو فى الواجهة العليا .

وثمة قصيدة وطنية أخرى تمس الجرح القومى ، وهو مأساة فلسطين ، وهى تحت عنوان « حُمَاة الضيم » . إنه يغنى فيها جرح الذل ، ويبدؤها بمطلع يُخاطب فيه عَاذِلَة وهمية ، تؤنبه على كآبته وحزنه ، يقول :

عاتبتِـه . . ونسيتِ طِيبَ نِجَـارِه [1]
وأبيت أن تصغى إلـى أعذارِه
تلك البقيـة مـن سُلافة حُلمـه
نضبت ، ولـم تنقـع غليـل أوارِه
أو مـا لمحتِ على كآبـة صمتـه
مـا شقَّت الأقـدار مـن أستاره ؟

(١) نجاره : أصله وعنصره .

إنه لم يكن يبدى العنفوان إلاَّ من خلال مجده الذى يعلو النجوم ، وعزّه الذى كان يتبدى فى كل التخوم . . أما الآن فقد دهمته الخطوب وأذله الأسر، ولم تعد لديه قدرة على الغناء القديم ؛ لأن الجنباء هدموا وطنه ، وتجاذبوه كالحمل ، وتركوا بصمات العار على كل جدار ، يقول :

المجد يخجل أن يجيل الطرف فى
ما هدَّم الجبناءُ من أسوارِه
فكأنه من نِيله لفُراته
حَمَلٌ تجاذَبُه يَدَا جزَّاره !
ما ذنبُ فِتْيَتِهِ إذا شَبَّتْ ولم
تلمح بتربته خُطَا أحراره
تركت لها آباؤها الإرْثَ الذى
يبقى مطوّقها بلعنةِ عَارِه

إن القدس لم تعد مكانًا للعبادة ، كما أن أبناءها جياع مطرودون بين شيخ ينوء بحمل السنين ، وامرأة حرة يُعتدى على عرضها . . . الخ يقول :

هل فى رَوَابى القدس كهفُ عبادة
تحنو جوانبه على أَحْبارِه
خشبُ الصليب على الرمال مخضَّبٌ
بدماء مَنْ نَعِموا بِطِيبِ جِوَارِهِ

إلى أن يقول :

كَم حرةٍ . . لم تدر عين الشمس ما
فى خِدْرها ، أغضت بطرفٍ كارِه
وبناتها وَجْلَى ، تضجُّ أمامها
والرِّجْس يدفعها إلى أوكاره

إذن بمن يستجير ؟ . . إن الشاعر يعود لنغمته السابقة فى اللوم على مَنْ وَرِثُوا مجد العروبة ولم يحافظوا عليه ، بل لم يحفظوا لحماهم حرمته ، يقول :

بمن استجارت هـذه الزُّمَرُ الـتى
مـدَّ الزمـان لها يَـدَ استهتـارِه
العُـرْىُ ينشرها علـى أنيابـه
والجوعُ يطويها علـى أظفـارِه

إنه فى النهاية يحلم ببزوغ شمس الحرية ، لأنه لا بقاء لظالم مهما طال المدى ، يقول :

مهـلاً حُمـاةَ الضَّيْـم إن لِلَيْلنـا
فجـرًا سيطـوى الضَّيْـمَ فـى أستـارِه
مـا نـام جفـن الحقـد عنـك وإنمـا
هـى هـدأة الرِّئبـال [1] قبـل نِفـارِه

لقد كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٤٨م ، أى فى عام النكبة ، الذى توالت بعده سلسلة السقوط .

ولهذه القصيدة ميزة ، أن الشاعر حاول فيها تكثيف المعانى ، وإنشاء الصور فى إطار الاستعارة المألوفة ، وبعض المبالغات المستمدة من مفردات العصر ومادته الشعرية . . إن النجمة تتعلق بالإزار ، والمجد يخجل من إجالة الطرف . . الخ .

إن الإيقاع الخطابى واضح فى هذه القصيدة ، منذ بدايتها وحتى نهايتها . وجملة القول أنها كانت تجرى على سنن من كانوا يكتبون آنئذ .

(١) الرئبال : اسم من أسماء الأسد .

غير أن شاعرنا لم يفقد صورة الإنسان المقاتل ، الفدائى الذى لم يستسلم، فلم تكن الصورة كلها قاتمة تشمل أناسًا مهزومين ، ففى قصيدته « بسمة التحدى » ، يقول :

يبسمُ . . من علَّمـهُ

كيف يطيب الألــمُ

إنه يرسم صورة المقاتل الحلم ، ذلك الذى يحطم سلاحه ، ويتناثر بين يديه ، وتمزق الجراح صدره ، وقد أحدق أعداؤه به حتى يستسلم ، ثم يسترحم . . إلا أنه ممعن فى كبريائة :

سلاحــه علـى الثَّـرَى

مُبعثــرٌ محطـــمُ

وصـــدره ممـــزَّق

يسيــل فوقــه الــدم

وحـولــه أعـــداؤهُ

تلعنـــه وتشتـــمُ

غير أن هذا الفدائى البطل :

أزرى بـذلِّ حقيرهــا

ومـات وهــو يبسـمُ

لقد كتب هذه القصيدة عام ١٩٧٠م بعد أن تعقدت أمور المأساة ، وظهرت فى الأفق سحب كثيفة من اليأس ، خصوصًا بعد انكسار الحلم العربى فى عام ١٩٦٧م . كان الشاعر هنا يعلن أنه لا انكسار للحلم العربى مادام هناك فدائى يحمل أصالة القيم ، ويؤمن بقضيته وحقه فى

الوجود على أرضه ، ناعمًا بالحرية التى يغلو ثمنها على الجبناء ، أما هو ـ أى الفدائى ـ فإنه لم ولن يستسلم ، لأن شتائم الأعداء عبارات مديح فيه ، وأمنيتهم فى أن يطلب منهم الرحمة وسام التحدى ، لأن الصمود هو النصر.

* * *

إن « أبا ريشة » كرَّس كثيرًا من كتاباته للحديث عن الفدائى ، الذى يمثل قصيدة الموت والنصر . ففى قصيدة وضع لها عنوان « فدائى » يقول :

أمضـــى .. ويُـذهلنـــى طِـلابـــى
عنـــى ، وعـــن دنيـا شبابـــى
أمضـــى .. ويسألنـــى الـربيـــعُ
ولا أجيـب متـى إيـابـــى ؟!

إنه لا يحفل بمتع الشباب ، وزَهْو الربيع ، وجمال الطبيعة ونشوتها . . إنه ذاهب إلى موت الشهادة ، الذى تختصر لحظاته أعمارًا ، بل أجيالا ، لأنها تحمل وسام البطولة ، وشرف الاستشهاد . يقول :

بينـى وبيـن المـوت ميعـادٌ
أحـث لـــه ركـابـــى
عَبـقٌ بـأنفـاس النَّعيـم
السـمحِ والمجـدِ اللُّبـاب

إنه يثأر لاغتصاب أرضه ، وانتهاك عرضه ، وكأن آباءه وأجداده غضاب لما يحدث ، يقول :

هَـذِى الـربـوع ربـوعُ آبـائـى
وأجـــدادى الغضـــاب

عَطِّرْ - فِـدَاكَ العمر - يـا
ميعـادُ مـن جرحى ترابـى

ولا يزال هناك الأمل برغم مواجهة الموت ، حيث يقول :

فلسـوف تُـركـزُ فيـه أعـلامـى
وتحـرسهـا حـرابـى

لقد استخدم الفعل المبنى للمجهول « تُركز » لأن الأعلام يحملها جيل بعد جيل ، وتظل الحِرابُ فى أيدى الوارثين تحرس هذه الأعلام التى ركزها الفدائى الذى كان يواجه الموت بنفس راضية ، وقلب ثابت ، وجنان لا تهزه رهبة ولا خوف .

* * *

ويحاول « أبو ريشة » أن يمثل الحلم أو المثل الذى يرتجيه ، من خلال تغشية الواقع بغلالة من الخيال الواهم ، ويخرجه فى عمل إبداعى على نحو ما يهوى ويتمنى . وقد يبدع وطنًا بديلا للوطن المهزوم ، وإهابًا جديدًا غير إهاب الإنسان المتهاوى الأوصال . ولكن هذه المحاولة لا تدوم كثيرًا ، لأن الشاعر سرعان ما يصطدم بالواقع . . يقول أبو ريشة :

زَارُوا بـلادى نـافـرِيـن
مـن الخيـال إلـى العِيـان
متشـوقين لـرؤيـة الحسناء
عَنْقَـاءِ الـزمـان
أنـا صُغتُ فتنتهـا بمـا
أو حـى إلَّى بهـا افتتانـى

لقد صاغ الوطن البديل من خلال ما أوحى إليه تطلعه وتشوفه لعالمٍ أو لوطن يهوى أن يراه على الواقع . لقد تغنى لهذا الوطن ، وذاعَ غناؤه حتى ملأ مسمع الدنيا . . يقول :

غنَّيتُهـــا حتـــى غَـــدَتْ
فـــى مسـمع الـدنيـــا أغـانـــى

لقد اصطنع لنفسه هذا المثال :

أطلقتهـــا مـــن خِـــدْرهـــا
مَجْلـى السِـــنا والعنفـــوان

وماذا صنع بمواطنيها . . إنه أيضًا يجعل منهم فتية أشداء ، مقاتلين أقوياء ، يذودون عن الحِمَى ، ويحمون الذمار . . يقول :

وجعلت فتيتهـــا حمـــاة
المجـــد ، فرســـان الـرهـــان

ثم يأتى ببيت القصيد ، على ما كان يفعل الشعراء القدامى ، حيث يخرج الشاعر بفكرة هى مدار التعبير ، بدءًا من زاوية الرصد حتى نهاية الشكل الإبداعى . . يقول :

زاروا بـــلادى فـاخَتبـــأْتُ
خشيت أن يـــدروا مكـــانـى

وينتقل « أبو ريشة » من الحديث عن الفرد الحلم ، والوطن الحلم ، للحديث عن الأنا الجمعى ، الشعب الذى يتمثل فى كل فرد من أفراد الحلـم ،ولكنه يجده مجموعًا متفرقًا ، وبناءً متهاويًا ، فيسقط الحلم ويعود إلى اللـوم والشكاية ، يلوم شعبه على تخاذله واستكانته ، يقول عن قصيدة «يا شعب» :

يـا شـعُب لا تشْكُ الشقـاء
ولا تُطـِلْ فيـه نـواحـك
لـو لـم تكـن بيـديـك مجـروحـا
لضمَّـدنـا جـراحـك

إن الإنسان يحمل تبعة ما يصنع ، ولا يخلف الذل والتخاذل إلاَّ ذُلاً وتخاذلا ، خصوصًا إذا ترك الإنسان قياده لمن لا يحس القياد . . يقول :

أنـت انتقيـت رجـالَ أمـرك
وارتقيْـت بهـم صـلاحـك

إن الشعب لم يُفرض عليه الذل ، فهو ذليل بصورة طبيعية ، ولكن الشاعر العاتب يتوجه برقق فى عتابه . . يقول :

لهفـى عليـك . . أهكـذا
تطـوى علـى ذلِّ جناحَـك !!
لـو لـم تُبحْ لِـهـواك علـيـاء
الحيـاة لمـا استباحـك

والغريب فى أمر هذه القصيدة أنها كتبت ـ كما سُجِّل فى ديوان الشاعر ـ عام ١٩٤٣ ، فهو إذن ذو شعور قومى حاد فى وقت مبكر ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على شعوره الوطنى المبكر ، بعيدًا عن النجاح فى التعبير عن هذا الشعور ، أو عدم النجاح فيه .

* * *

ثم إنه سرعان ما يعود لذواخر التاريخ ، يوقظ منها أيام العرب الخالدة ، وشخصياتها الرائدة . . يقول من قصيدة بعنوان « خالد » :

ما أرى ؟هـذه ذوائبُ [1] مخـزوم
وهـذى خيامهـم والمغَـانـى [2]

إلى أن يتحدث عن موقعة « أحـد » فيقول :

«أُحُـد » لاح حين لاح عليـه
عـالـم ضمـن هيكـل إنسانـى
زرع الحـق فـى كتـاب مبين
وحماهُ بكـل عَضْب [3] يمـانـى

ثم يعود إلى نفسه مخاطبًا « خالدًا » :

يا مُسَجَّى فى قبة الخلد يا خالـد
هـل مـن تَلَفُّتٍ لبيانـى ؟
لا رعانـى الصِّبَـا إذا عصف البغى
وأُلْفـى فمـى ضريـح لسانـى !!

إنه عهد يقطعه على نفسه أن تكون ألحانه كريمة الهدف ، لأن انتماءَهُ الأصيل كان لأمة عظيمة فى مجدها . . يقول :

أقسـم المجـد أن أقطِّـع أو تـارى
عليـه بأكـرم الألحـان
أنـا من أمـة أفاقت علـى العـز
وأغفت مغموسة فى الهـوان

(١) الذوائب : علية القوم .
(٢) المغانى : جمع مغْنى اسم مكان للغناء .
(٣) عضب : صفة طيبة للسيف .

وهكذا سار الحديث عن الوطن عند أبى ريشة فى اتجاه نابض نحو الأحداث ، يواكبها ويرصدها فى بيان يتأرجح بين التقليد الذى يجعله يقع فى مهاوى البلاغيات القديمة مرة ، وبين محاولة إيجاد صور جديدة ينتزعها من ثقافته الموروثة والمكتسبة ، واطلاعاته على ثقافات العصر مرة أخرى . وعلى الجملة فقد كان صوتًا داويًا فقدته الأمة ، ولكنها تذكره بما خلَّف من شعر ، أسهم به فى إبداعات هذا العصر .

الحُب :

عاش « أبو ريشة » قضية الحب شاعرًا عبر أحواله جميعًا ، فقد كان يشعر أنه يقبض على طيف خادع لامرأة أخرى ، يتوق إليها ، ويحلم بها ، شأنه فى ذلك شأن الرومانسيين جميعًا .

إنه يشعر ببعض الفرح فى لقائها حينًا ، فى لحظة تمتلىء بالنشوة ، يتخفف خلالها من ألم الغربة النفسية ، إلا أنها ـ أى الحبيبة ـ سرعان ما تفر من بين يديه ، مخلفة أثر الخيبة واليأس . . يقول (١) :

أردتِ أنتِ انطلاقى ... إلى الخِبَاء المُعَلَّى
إلى ملاعب دنيا ... ما زارها الوهم قبلا
ولم أكن لك كُفؤًا ... ولا لحبِّك أهلا
وغبتِ . . لم تتركى لى ... من القليل الأقلاَّ
لم أدْرِ كيف تصدَّى ... لى النعيم وولىَّ

إن الحُبَّ يرفع نفس المحب إلى الأعالى ، توجهًا نحو الكمال والطهر ، إلا أن شاعرنا واجهه نزوة وطيشًا ، ولذا فقد تراءى له النعيم ولكنه لم يظفر به .

(١) من ديوان الشاعر ـ دار العودة . بيروت ـ سنة ١٩٧٠ .

إنه لم يعانق فى حبه الفرح ولكنه ألمَّ به إلمامًا وبَعُدَ عنه . . فالمرأة الماثلة أمامه هى المرأة المثال ، المرأة الحلم ، التى لا يدركها إلاَّ مَنْ تطهر من أدران الشهوة والغريزة . وقد عمد الشاعر فى ذلك إلى البساطة التى تكاد تدخل فى باب النثر ، كما فى قوله : « ولم أكن لك كُفوا » ، فلفظة « كُفوا » مباشرة صريحة ، تقترب من التعبير النثرى . إنه شعر الاعتراف بالمعاناة الصريحة العفوية . أما قوله : « الخباء المعلى » فهو يشير إلى أبعد من العاطفة الطافية ، ويشى إلى الحب القادر على كشف ما كتم واستتر من حقائق الوجود فى سمو وتطهُّر ، وإن كان الشاعر قد جارى معاصريه فى التعميم والإطلاق ، من خلال الحماس العاطفى ، فدنيا الحب لم يزره منها حتى الوهم .

وعلى الجملة فإن هذه الأبيات تؤثر فى نفس قارئها لجرسها الهادىء ، ووقْعها الرقيق ، وإن كانت التجارب المعاصرة تأتى أكثر تكثيفًا .

وقد تبدو تجربة الحب عند أبى ريشة سعادة خادعة ، تعانق السراب والوهمْ يقول :

للحب . . هـذا العمرُ يـا دنيـا
لا تحجُبـى مـن خيـره شَيَّـا
لـولاه ما كنتِ الجمـالَ ولا
فجَّـرتِ لـى نَعْمَاءَه وحْيـا
كيـف الحيـاةُ إذا رُزئتُ بـه !!
فطويت سِفْـرَ عهـوده طَيَّـا
الكـون أوهـى بعـده سنـدًا
والمـوت أشهـى بعـده لُقيـا

إن الفكرة فى هذه الأبيات ليست غامضة ، فهى تشير إلى أنه لاسعادة فى

الدنيا بدون الحب ، فهو الذى يمنح الدنيا الجمال ، ويدفع إلى التعلق بها ، فإذا خمدت جذوة الحب خمدت فى النفس الشهوة ، وواضح أنها فكرة رومانسية .

وقد تخلص الشاعر فى هذه القصيدة من النزعة الخطابية ، التى لا تتناسب مع الحديث عن الحب ، فالشاعر يؤمن بتوحُّد الحب والسعادة والحياة ، لأنه يؤمن بقيمة المرأة ، موجودة أو غير موجودة . أما الحب . . فهل هو حقيقة موجودة ؟ إن آفة العواطف أنها طارئة لاثبات لها ، وهذا ما دفع «لامرتين» الشاعر الفرنسى ـ أن يصيح بالزمن أن يوقف عجلته ، لكى تثبت أمامه هنيهة الحب ، فالمرء يزداد شغفًا به كلما شخص أمامه فى لحظة يتوهم أن الزمن قد توقف فيها ؛ ولهذا لجأ الشاعر إلى رسم صورة أخرى متسارعة ، تدنو من الأولى ، يقول :

وتمـــر بـــى الأيـــامُ يـــا دُنْيَـــا
وتسُـــل خيـرَك مـــن يـــدى بَغْيـــا
وأسيـــر خـلف ركـــاب وحشتهـــا
ووراء جفنـــى تغـــرَق الـرؤيـــا
مـــا كـــان أغربَ كـــلَّ أخيلتى !!
الحـــب مـــات ولـــم أزل حَيَّـــا

إنه يحيا ، برغم موت الحب ، ولكنها حياة بلا جدوى ؛ لأنها تمنح أبناءها العواطف الحلوة ، ثم تنزعها منهم ، كى يلحوا فى طلبها من جديد . وتظل العواطف فى حياة الناس مأساة ، تسعد حينًا ثم لا تلبث أن تُتعس ، لا تُقبل إلا لتولى ، ويظل الإنسان فى سعيه نحوها يحتسى اللوعة والشقاء .

إن التأمل هو المجرى الأصلى للتجربة ، وتأتى المعاناة رافدًا لهذا المجرى الأصلى . يلعب التشكيل دورًا مهمًا فى إبراز هذه التجربة ، التشكيل اللفظى والتصويرى ، وهذا ما يجيده أبو ريشة ، إلا أنه مولع بالبيت القُفل ، البيت المدهش ، الذى يحول سياق المعانى ، ويأتى طارئا ينقض ما تقدم لإثارة الشعور بالغرابة ـ فهو يقول :

الحب مات ولم أزل أحيـــا

ولقد كان الشاعر إيليا أبو ماضى مولعًا بهذا الضرب من البديع المستور ، الذى يهدف إلى الدهشة والإثارة .

ومن جانب آخر نلمح لدى الشاعر حُبًّا متحررًا من الحسرة ، فى لحظة معزولة من الزمن يقول :

بثْنـــا وذراعـانـــا قيـــدَا
دنيـــا بالفتنـــة مُتَّسـمهْ
ومـراشفنـــا رَيَّـــا وجـوانحنـــا
بـالنشـــوة مُضطـرمـــهْ
ومَحَـاجِـرُنَـــا غـرْقـى فيمـا
سكبتـــه يَقْظتنـــا النَّهِـمَـهْ
وانقضَّ الليـلُ ، ومـا مـرَّت
فـى مسـمعه مِنَّـا كلمـهْ

لقد حقق الحب ذاته بنشوة أو شهوة . . لسنا ندرى . إن الحب إذا حقق هدفه لم يعد بحاجة إلى البوح ، ولعل الشاعر أراد أن يوهمنا بأن الحياة تصْمت إذا تحقق فيها الحب ، وتكف عن طلب أيّة حاجات أخرى .

وعندما يمر الشاعر بمشهد تقليدى يعبر عن نشوة الحب ، فإنه يتسامى

ويضفى على تجربته معاناة الغربة ، لينزع التجربة من إطار التقليد ويكسوها رونق الجدة فى رؤيته ومعاناته . . يقول :

مـــرت بنـــا ليلتـــان ... بالسُّهـــد موصـــولتـــانِ
والعشـــب مضجـــعُ رفـــقٍ ... والـــدَّوْح سِتـــرٌ حنـــانِ
وأنـــت مَجْلـــى ذهـــولٍ ... مخضـــب عنفـــوانـــى
مـــا تكتمِـــين ؟ أجيبـــى ... يـــاثـــورة فـــى كيـــانـــى
فيـــمَ الوجـــومُ ؟ أرينـــى ... عينيـــك ، مـــا تخبـــرانـى

إن مشهد العاشقين على بساط من العشب ، وأفْيَاء الدَّوْح قد ذاب فى الحلم الرومانسى ، إلا أن حس الفاجعة يسيطر على واقعة الحب فى ذروة النشوة وتحقيق الذات ، يشى بذلك صمت الحبيبة ، فكأنها مدركة أن السعادة التى تغرق فيها لن تدوم ، وهو هاجس يقطع عليها استمرار الشعور بالسعادة . إن الحبيبة هنا هى الصوت الآخر فى ذات الشاعر ، الذات المتوجسة التى تتوقع الفراق ، لأنها لا تطمئن للزمن ، ويكشف الشاعر عن ذلك فى قوله :

تَشَبَّثِى بـــى ، وزِيـــدى ... ما شِئْتِ منـــى ، تـــدانـــى
وخبِّئـــى فـــوق صـــدرى ... الوجـــهَ الـــذى لا يـرانـــى
مـــا أقـــرب الفجـــر منـــا ... ومـــن ســـراب الأمـانـــى
حســـناءُ . . إنَّ جَناحَـــىْ ... طـيـريـــن يَصْطَفِقـــان
ونجمـــة مـــن بعيـــد ... تقـــول لـــن تذكُـــرَانـــى

إن هذا التشبُّث هو الرفضُ للقدر المتوقَّع ، بل إنه محاولة يائسة للتمرد عليه ، أو النجاة منه[1] . فإطلالة الفجر تنذر بالفراق ، والذى سعدا به لم

(١) عمر أبو ريشة ـ شاعر الجمال والقتال . إيليا الحاوى / دار الكتاب اللبنانى . بيروت .

يكن إلاَّ سرابًا فاجعًا ، أو تعللا بالأمانى الكاذبة . إن الفجر لا يعنى هنا الضوء والأمل ، بل إنه يمثل بُعْدًا وجوديًّا فى الدلالة على الزمن الآخر ، زمن التحول من لحظة طيِّعة مواتية ، إلى لحظة عصيَّة آتية . ويتخذ الشاعر رموزاً أخرى للفراق . . جناحى الطائر المصطفقين ، والنجمة التى تتراءى على الأفق ثم تغيب كأن لم تكن .

إن المرأة لدى الشاعر ليست أداة لوصف المفاتن التى حباها الله بها ، بل إنه يتخذ من شغفه بها معْبرًا يدلل به على بؤس المصير البشرى ، أو على هشاشة العواطف البشرية التى لا تحمل فى بقائها إلاَّ معنى الفناء .

إن فرح الشاعر بالحب يصطبغ بألوان « متعددة » ، فحينًا تصيبه الخيبة بالفراق والخوف من عدم العودة ، وحينًا بالعذاب والخوف من الزمن ، وهو فى كل ذلك متوهم أنه ربما يفقد الغايات الكبرى ، غاية التحرير والنصر ، وتغيير العالم . إذن هو يجرى وراء سعادة سرابية ، يجرى وراءها والندم يغمر نفسه ،ولهذا تتغير النغمة تبعًا لذلك ، فترى الوزن قد تغير ، ومقاطع العبارات تتغير أيضًا طولاً وقصرًا . . يقول :

شاهـــدتُ الدنيـــا بعينيكِ
مِتعـًا أبكـــارْ
ومطـاف خيـــالات عَليـــا
تهمى أســرارْ
أو مَـــأتِ إلىَّ ولـم أســألْ
أيـن التسيارْ
وتبعتكِ أستقصى المنـهـلْ
وأَغَصُّ أوارْ

إن الحب عنده يُرْوَى دون ارتواء ، وتعلُّقه بالمرأة التى يحبها لا تشفى نفسه ، ولا تنقع غُلَّته ، فكأن الشاعر يسعى نحو امرأة أخرى وراءها . . إنه يتحرى الضائع فى المرأة ، وهو أيضًا ضائع ، لأنه مسحور بسحرها :

الرحلـةُ ! مالـى والرحلـهْ
مـالى أختـارْ
أن أحمل ما أخشى حملـهْ
فى وهْج النارْ

إن المحب لا يحب باختياره ، والعاطفة تفرض ذاتها كقيد ، والمرء يحبو إثرها ويتحمل المعاناة . فأىُّ مجد لإنسان لا إرادة له على عواطفه ، وإلى أية مهمة كبرى يتطلع :

عفوًا . . يا بِـدعـةَ خـــلاق
سمـْح ، جبـارْ
إن مـــاتت عنـدك أشواقـى
وأضعـتُ الغـارْ
خفـــاشٌ فـوجـــىء بالنورِ
فـارتـاع وحـــارْ
وهَـوَى بجنـــاح مكسـورٍ
فى ظل جـدارْ

إن المرأة هنا تأخذ صفة أثيرية ، وكأن الوجود ليس سعيدًا بها لما يعانيه من وراء ذلك .

وشعر أبى ريشة فى هذا المضمار يتسم بروعة العنفوان ، فآلامه التى يحملها كبيرة ، ينخلع منها فى بعض الأحيان ليوشح معاناته ببعض أردية التقليد ، يقول :

مساءَ الخير . . كاد الليـل يسحب ستره عَنَّـا
ومـا زلنا نهـز الشوق ، إنْ أغفـى أو استأنـى
فلا أكبادُنـا تروى ، ولا أقداحُنـا تفنـى
ولكـن . . طالما خِفْنَـا مـن العُذَّال ماخفنـا

فالشاعر مازال ينفق الليل ساهِرًا ، مغرقًا فى متع الحب ، يزداد ظمأً كلما ازداد ارتواءً ، إلا أن طيف العذَّال يصحبه فى نعيمه ، فتغشاه صدمة الخوف ، هنا تتبدل ملامح الحب ، وترتدى سعادته قناعًا آخر . وسرعان ما يعلن الشاعر عدم احتفاله بالعذال وإن أتى ذكرهم ، فهو يستمتع بالحب ويعود إلى فردوسه القديم :

مساء الخير . . . هذى قبلة عجلى . . فما أَهْنَـا
وهذى ضمة أخرى ، فما أشقى ، وما أحنى !
أأمضى ؟ من يطيق البُعد عن فردوسه الأَسْنَى
وفِيمَ نقيمُ للعُذَّال يا حُورِيَّتى وَزْنـا
ليأتِ الفجر ، ولينقل حكاية حبنا منـــا

* * *

وفى هذا المضمار يورد عمر أبو ريشة تجربة عاطفية ، يقترن فيها الحب بالحقد ، فى ألفاظ صريحة مباشرة يقول :

كل أهوائك كانت بدعةً
من غوايات عنيدات التحدى
أخذتْ من كبريائى ما اشتهت
وتلهَّتْ بتباريحى ووجْدى
فانطوى فى غَيْهَب النسيان ذكرى
وانتهى فى ذلة الغفران حقدى

إن الحب هنا قائم على الخصام والجفاء ، والاستيلاء والاستعلاء من قبل الحبيبة ، فهو تجربة لا تسعده وتؤنسه ، والمحبوبة هنا محيرة ، لا يكاد يحقق لها غاية حتى تطالعه بغاية أخرى . والشاعر هنا هو الضحية ، لأنه لا ينسى برغم موت هذا الحب فى نفس الحبيبة ، والنسيان الذى أورده لا يعبر عن ذاته ، بل يعبر عن امتداد العذاب ـ ثم يقول :

وَجَفَانى كلُّ أتْرابى فما
حفظوا وُدِّى ، ولا أَوْفوا بعهدى
ما تبقَّى غير هذا القيد لى
فى بقايا الليل من همٍّ وسُهْدِ

ويأتى البيت القفل ، البيت الخاتم الذى أولع به الشاعر فيقول :

إنه عمرى .. فلن أرمى به
لا أطيق السير فى الوحشة وحدى

وفى تجربة أخرى نراه يتمرد على المحبوبة ، ولا يترك لها الاستعلاء فيقول :

لا تصْفحى عنِّى ولا تغفرى
إنى أحب المرأةَ الحاقدهْ

قولى : ابتعد عَنِّىَ ، قولى : انطلق
ما شئتَ فى أهوائك الفاسدهْ
يجرح من زهوى تغاضيك عن
أمسى ، وعن أحلامك الشاردهْ

إن تنقُّل المحبين بين الحقد والوُدِّ ، والقسوة والنشوة ، والصدِّ والإقبال . . كل هذه المعانى هى المساحات التى يَجُولُ فيها أبو ريشة ، فهو ينتصر فى قوله :

لو بين جنبيكِ بقايا هوى
لكنتِ فى هذا اللقا زاهدهْ

ويأتى البيت القفل فى قوله :

محاجرُ البركان لم تكتحلْ
بالثلج ، لولا نارُه الهامدهْ

وللحب إثْر الفراق لحظات من الحنين ، توقظها ملامح الحبيبة التى يلمحها فى أنثى أخرى ، فينسى إقبال الحب الجديد ويخضع لِمُنَيهات الذكرى ، ويدخل عندئذ فى تجربة الطيف ، كما عُهِدَ فى الشعر القديم ، إلا أنه يخرِّج طيفه تخريجًا عصريًّا ، إذ تبدى له وهويخاصر أنثى فى حلبة الرقص ، يقول :

على شفتينا ثار طيفُك وارتَمى
فأبعد وهجَ الشوق والعطر عنهما
وتسألنى مابى ، فأخنق زفرتى
وأرنو إليها موجعًا متبسما
وأرجع عنها حاملا منك وحشتى
وفى خافقى جُوع ، وفى مقلتى ظما

وهنا يأتى الوهم الرومانسى فيقول :

وأُغْرِق فى كأسى عهودك كلها
فما أعرف الأشياء إلا توهمًّا
فكل جمال صاح بى منه هاتف
إليك تناهى أو إلى سحرك انتمى

وتأتى فى شعر أبى ريشة التماعات سيكولوجية عفوية لدى تعبيره عن الوجد الذى يكسو معالم الوجود بأشيائه ، فيغشاها بحنين ثابت ، حنين إلى أنثى الماضى ، وبين يديه أنثى الحاضر ، يقول :

ولى خطوات ، بعدُ فى درب غربتى
سأقطعها وثبًا ، وأخْضبها دمًا
وألقاك بالحب الذى تعرفينه
ولن تسألى عنه ، ولن أتكلما

إن الشاعر الرومانسى حالم ، أو غارق فى دنيا الحلم ، تطيش أحلامه عندما تنداح فى دنيا الناس .

* * *

ويتطرق أبو ريشة أحيانًا إلى التبتل فى الحب ، أو العذرية على ما كان يقال عن الشعر العذرى فى العصور الخالية ، ولعله شاهد تبذُّل الشعراء فى ذلك فعفَّ والتزم الكبرياء . . يقول :

سكتُّ . . وطرفى على طرفها
غضيضٌ . . وفوق يديها يدى
فأسْنَدَتِ الرأسَ فى رقة

على قلبيَ الثائر المُجْهَدِ
ولما همتُ بتقبيلها
ورشفِ الرّضابِ الشهى الندى
سمعتُ نداءَ الضمير الجريح
يتمتم : يا وَغْدُ لا تعتدِ
حَنَيْتُ على وقْعِه هامتى
وسِرْتُ على غير ما مقصد

إن المراوَحة الصادقة بين الخير والشر ، والحلال والحرام . . لا تزال فى أصل التجارب الإنسانية فى الشعر ، إلا أنها عند أبى ريشة لا تتخذ الشكل اللصيق بالنفس ، فهى سوانح تروح وتجىء .

الغربة والموت :

إن فكرة الشعور بالزوال والعدم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفكرة الغربة ، فالشاعر يشعر بالزهد والتوحد اللذين هما من طبائع الرومانسى ، فهو يعتبر نفسه غريبًا اعتزل أعراس الحياة فاستحالت ندمًا وحسرة . إنه يشفق على بؤس الآخرين ، يحنو عليهم فى تعاطف حانٍ ، لأن الزمن حَمَّلهم عبئًا ثقيلاً عبر رحلة عادوا منها بنفوس خاوية ، وأيدٍ فارغة . وقد يدفع ذلك إلى رثاء النفس ، فى نغم نائح ، تغشيه جنازة اليأس . يقول من قصيدته التى رثى بها إميل البستانى :

نحن أسرى التراب ما أطلقتنا
بعدُ ، من طيب أَسْرِه أصْفَادُه
حسبنا منه إنْ قدرنا فأحببنا
فهانت على الحياة شدادُه

وفى الاحتفال الذى أقيم فى المهرجان الألفى لأبى العلاء المعرى الذى

اشتهر بنظراته الخاصة فى الحياة والموت يقول أبو ريشة :

نحن نسْجُ الثرى فما لأمانينا
على كل كوكب تتفانى

إن الزوال الذى يشير إليه أبو ريشة يتخذ طابعًا مأساويًّا ، فى إطار الوعى الذى خلص إليه من تأمل الحياة ، وإن كان لم يسهم بالتجديد فى هذا المجال ، فقد اكتفى برصد انفعالاته ، لأنه زائر مسافر ، لا يكاد يبصر الأشياء حتى يودعها . إنها صوفية ظاهرة مضمرة ، لم يتمكن أبو ريشة من رصدها إلاَّ فى نثار من قصائده . . يقول فى إحدى قصائده :

يا غُرْبتى .. لا تُطلقى أَسْرِى
لم يبق لى فى العمر ما يُغْرى
طالعتُنى أيامَ كنتُ الشذَى
يحلم فى أكمامه الخُضرِ
ولَمْ تزالى طيفىَ المرتَمى
فى كل درب موحش قفْر

إنه يوجز أمره كله مع الغربة التى لازمته منذ مطلع إقباله إلى الدنيا ، لقد سعى للفكاك من شباكها فلم يستطع ، وظل يحاول حتى استسلم لقيودها :

كم سلوةٍ ناجيتُها فانثنت
ترمُقنى بالنظر الشزْرِ
كفَّنتُ فى الفجر جراحَ الصِّبا
ورحتُ لا ألوى على أَمْرِ

ويخاطب الغربة قائلا :

يـــا غـــربتى !! مـــا أقـــرب المنتهى
بعـــد جفـــاف الكـأس مـــن خمـــرى
سِـيرِي بتابـــوتى إلـــى قبـره
وانتصبى بُومًـــا علـــى القبـــر

إن الصورة عنده تظل واقعية ، يستخدمها كناية عن حالة وجدانية ، يقحم عليها تأويلا نفسيًّا كما فى قوله بأن الشذى يحلم . . إلخ . إنه لا يحيا فى الواقع بل فى وهم وراءه ، وجهه مع الناس وفكره بعيد عنهم ، فالوطن الحقيقى هو الوطن الآخر الذى لا تمثله دنيا الناس .

وتتمثل مأساة الغربة فى قصيدة « عناد » ، حيث يفر الشاعر من الواقع ، مخالفًا بذلك بدايته ، حيث كانت الرُّبَا تضيق بآماله ، فيخطر مرحًا مزهوًّا . إنه الآن مخذول . لقد تبدل كل شىء ، ولذا طالعته ملامح الهرم عندما ينظر فى المرآة ، يقول :

هـــذى الـرُّبـــا كـــم ضـــاق فىَّ فضاؤهـــا
مالـى علـى جنباتهـــا . . . أتعثر
شـبَّ الحصـى فيهـا ودُون زحامـــه
دربٌ يغيب ، وآخـرٌ يتكسَّـر
وملاعبـى ، ومَجَـرُّ أذيـالـــى بهـــا
بعُـدتْ ، فمـا ترقى إليهـا الأَنْسُـر

إنه لم يعد يُـؤْخَذُ بأية روعة من روائع الوجود ، الطبيعة التى كانت تفرش له بساط الفرح ، ينطلق فيها على طبيعته ، ويرى فيها حكمة الخالق فى مخلوقاته ، يقول بعد ذلك :

وتطوف بى دنيا مخضَّلةُ الجنى
لا أنتقى منها ولا أتخيَّر
واليوم لا وَهَجٌ ، ولا أَرَجٌ بها
فكأنها من مُزنة تتحدر

لعل الشاعر تقدمت به الأيام ، وركد طعم الملل فى وجدانه من طغيان الهموم عليه ، فلم يعد يزهو زهوه القديم . لقد كانت سعادة وجدانية تعانق جمال الطبيعة ، ثم زالت . إنه يتخير من مظاهر الوجود أشدها أخذًا للنفس ، وامتلاكًا للحواس .

والمقطع الأخير من القصيدة يوجز الأمر كله ، ويفصح عنه . لقد خلَّف الزمن ندوب الهرم ، الذى هو مقدمة الموت :

وأرى الشتاء تطاولت أيَّامُهُ
وازداد عسْفًا قلبُه المتحجِّر
كم زارنى ، وكشفتُ عن صدرى له
فأقام لا يزهو ولا يتكبَّر

ثم ينتهى إلى القول :

وأتيت مرآتى ، وعطرى فى يدى
فبصُرْتُ ما لا كنتُ فيها أُبصرُ
فخفضْتُ طرفى .. ذاهلاً متوجعًا
ونفرتُ منها .. عاتبًا ، أستنكرُ
خانتْ عهودَ مودَّتى ، فتَغَيَّرَتْ
ما كنت أحسبُ أنها تتغيرُ

إن الفكر يستحيل إلى تأمل ، والتأمل يجعل من العقل والشعور رافدين لإخصاب هذا التأمل ، فإذا تخطى ذاته التمعت الرؤيا ، واستبان الواقع مضيئًا . إن الشعر لا يتكامل إلاَّ فى حالة الذهول ، وشاعرنا يلمس الموضوع ويعايشه ، ولكنها معاناة غير متفجرة غالبًا .

إن الاتجاه الرومانسى لا يصِم الشعر ولا الشاعر إذا استخدمت فيه إمكانات التغنى الرومانسى نحو خلق رؤى حديثة ، من خلال تجربة تجسد حرارة اللقاء بين الإنسان والعالم . إننا لا ننكر قيمة الاعتبارات الوجدانية التى تشير أو ترمز إلى موروث عن الغربة وما إليها ، ولكن الاقتصار على هذه الإشارات ، وتعريتها من الإيماءات الغنية بالتجربة الإنسانية القائمة على التأمل ، لا يؤدى إلاَّ إلى طريق مسدود فى وجه الشعر .

لقد ألقيت الضوء على مجموعة من الظواهر ، التى حاولتُ تقديم الشاعر عمر أبى ريشة بها إلى أحبائه ، ولعلها تكون قد قربته من عقولهم وقلوبهم ، وهذا ما ابتغيت .

هؤلاء

قصيدة تذكرنا بالشاعر الفرنسيّ الفرد دى فينى فى تعبيرها عن رواقيّة الكبرياء والصّمت والألم ، أو أنها تنطوى على مثل عبثيّة كامو فى الصمت الموحش الذى يواجه به القدر . يقول :

تَتَساءَلين ... عَـلاَمَ يَحْيَا
هؤلا ء الأشقياءْ . . !
الْـمُتْعَبونَ وَدَرْبُهُمْ
قَفْرٌ وَمَرْماهم هَبَاءْ
الذَّاهلُونَ الوَاجمُونَ
أَمَامَ نَعشِ الكبْرياءْ !
الصّابرونَ علَى الـجراحِ
المطرقونَ على الحياءْ !
أَنْسَتْهُمُ الأيامُ ، مَا
ضَحكُ الحَيَاة ومَا البُكَاءْ ؟

أَزْرَتْ بدنْيَاهُمْ ، وَلَمْ
تَـتْـرُكْ لَهُم فيها رَجَاءْ
تَتَسَاءَلين . . وكَيْفَ أعْلَمُ
ما يَرَوْنَ على البَقَاءْ ؟!
اِمضى لشأنكِ . .
أسكُتى ...
أنا واحدٌ من هؤلاء !

(١٩٧٠م)

وداع

« كانت تخجل كلما مر بها ، فأوقفها
مرة ، ورد إليها رسائلها ... »

قِـفـى ! لا تَـخْـجَـلـى مِـنّـى ،
فـمـا أشـقـاكِ أشْـقَـانـي
كِـلانـا مَـرَّ بـالنُّـعْـمَـى !
مُـرُورَ الـمُـتْـعَـبِ الوَانِـى
وغـادرهـا كَـوَمْـضِ الشّوقِ
فـى أحـداقِ سَـكْـرانِ !

* * *

قـفـى ! لـن تَسمعى مِنّـى
عـتـابَ المُـدنَفِ (١) العانى (٢)
فَـبَعـدَ اليـومِ لـن أسـأل
عـنْ كَـأسـى ونـدمـانـى
خُـذِى مـا سَـطَّـرتْ كَـفّـاكِ

(١) المدنف : الذى أصابه المرض من الحب .
(٢) العانى : عنا . . خضع وذل . والعانى أيضاً الأسير .

مـــن وجـــدٍ وأشْـــجـــانِ
صـحـــائفُ طـــالَـــمـا هَـــزّت
بـــوحى مـــنـــكِ ألـــحـــانـــى
خَـــلَـــعْتُ بـــهـا على قَـدَمَيْكِ
حُـلمَ الـعـــالَـم الـفـــانـــى !
لِنَطْـــوِ الأمْـــسَ ، ولْـنُسْـدِلْ
عليـــــه ذَيْـــــلَ نِسْيـــــانِ
فـــإنْ أبـصرتـنـى ، ابتَسِمِى
وَحـيِّـيـنـى بِـتَـحْـنـــانِ
وسِيـرِى سَـيْرَ حـالـمـــةٍ
وقَـــولـــى ... كَـــانَ يَـهْـوَانـى!

(١٩٤٦ م)

* * *

حرمان

« كان واقفاً على صخرة فى جبل لبنان
يستعرض ذكرياته أيام الدراسة ،
فتلفّت ذاهلاً كأنه يريد أن يكلم
من ظنها قريبة منه . .

إنها قصيدة الوجْد والمراهقة ، والتوحيد بين جمال الطبيعة ، والشوق إلى المرأة النائية ، وكأن الطبيعة لا تكتمل لوحتها إلاَّ بالمرأة ، وهى أدنى إلى البوح والإفصاح منها إلى النظمَ» :

لَيْلى ! أنا وحدى أُقَلِّبُ فى الرُّبَى
طَرْفاً يَروحُ بهِ الجمالُ ويَرجعُ
أَسْهُو على ذِكراكِ حتَى أَنْثَنى
مُتَطَلِّعاً . . لَهفى لِمَنْ أتطَلّعُ !
بَيْني وبَينكِ عالمٌ لَمْ يُدنه (١)
شَوْقٌ . . وَلَمْ يَبْلُغ حِماهُ تضرّعُ
أَقْتاتُ بَعْدكِ بالخيال ، وقَلّما
دَفَقَ الظّلامُ ، وما احْتَوانا مضْجَعُ
ليلى ! يكادُ هَواكِ يجرَحُ زَهْوَتى
فَتَبُوحُ بالألم الدّفينِ الأدْمُعُ !

(١٩٣٥م)

(١) لم يُدْنِه : لم يُقَرِّبه .

فدائى

أمْـضـي ويُـذْهِـلُنى طِلابى [1]
عنّـى وَعَـنْ دُنْيـا شَـبَـابِى
أمْـضى وَيَسْألُنى الـرَّبيعُ
وَلاَ أُجيـبُ مَـتَـى إيـابِـى
أمْـضى وَمَـا رَوَّتْ فَـمـى
كَـأسى وَلاَ أفْنَتْ شَـبَـابـى
بَيْنى وَبَيْنَ الـمَوْتِ ميعَادٌ
أحـثُّ لَـهُ رِكَـابـى
عَبِقٌ بأنْفَاسِ النّعِيم
السَّمْحِ وَالـمَجْدِ اللُّبَابِ [2]
أسْرى عـلـى إيـمـائـهِ
وَالـحِقْـدُ يَسْرى فى إهَابى !
هَـذى الـرّبوعُ رُبُوع آبـائـى
وَأجْـدَادى الـغـضَـابِ
عَـطِّـرْ ـ فَـدَاكَ الـعُـمْـرُ ـ يَـا
ميعَـادُ مِنْ جرْحِـى تُـرَابِى
فَـلَسَوْفَ تُرْكَـز فـيـه أعلاَمِى
وَتـحرسُـهـا حـرابـى (....)

(١) طلابى : مطلبى .
(٢) المجد اللباب : يقصد المجد الأصيل .

زاروا بلادى

زَارُوا بـــلادِى نَـافـرِيـــنَ
مِـنَ الـخَـيَـالِ إلى الـعِيَـانِ
مُـتَشـوِّقِـيـنَ لـرُؤْيَـةِ الـحَسْنَاءِ
عَـنْقَـــاءِ (١) الـــزَّمَـــانِ
أنـــا صُـغْـتُ فتْنَتَهـا بِمَا
أوْحَـى إلَـيَّ بِهَـا افـتِـتَـانى
غَنَيْتُهَـا حَتَّـى غَـدَتْ
فـــى مَـــسْـمَـــعِ
الـــدُّنْـيَـا أغَـــانـــى
أطْـلَقْـتُـهَـا مِـنْ خِـدْرِهَا
مَـجْلَى السنَـا وَالعُـنْفُـوانِ
وَجَـعَـلْـتُ فِتْيَـتَهَا حُـمَـاةَ
المـجْـدِ فُـرْسَـانَ الـرِّهَانِ

* * *

زَارُوا بـــلادِى ، فَـاخْـتَبَأْتُ
(خَـشِـيتُ أن يَـدروا مَـكـانى)

(١٩٦٧م)

(١) عنقاء : الأعنَق الطويل العُنُق ، والأنثى عنقاء ،وأصل العنقاء طائر عظيم معروف الاسم ، مجهول الجسم

يا شعب

يـاشَـعْـبُ لاَ تَـشْـكُ الـشّـقَـاءَ
وَلاَ تُـطِـلْ فـيـهِ نَـوَاحَـكْ
لَـوْ لَـمْ تكُـنْ بِـيَـدَيْـكَ مَجْرُوحاً
لَـضَـمَّـدْنَـا جِـرَاحَـكْ
أنْـتَ انْـتَـقَـيْـتَ رِجَـالَ أمْـرِكَ
وَارْتَـقَـبْـتَ بِـهِـمْ صَـلاَحَـكْ
فـإذَا بـهـم يُـرْخُـونَ فَـوْقَ
خَسِيسِ دُنْيَاهُمْ وشَاحَكْ (١)
كَـمْ مَـرّةٍ خَـفَـرُوا عُـهُـودَكَ
وَاستَـقُـوا بِـرِضَـاكَ رَاحَـكْ
أيَسيلُ صَدرك مِن جِراحَتِهِمْ
وَتُـعْـطِـيـهِـم سِـلاَحَـكْ ؟

* * *

لَهْفِي عَـلَـيْكَ ، أهَـكَـذَا
تَـطْـوِي عَـلـى ذُلٍّ جنـاحَكْ ؟
لَـوْ لَـمْ تُـبِحْ لِهَواكَ عَـلْـيَـاءَ
الـحَـيَاةِ لَـمَـا اسْـتَـبَاحَـكْ

(١٩٤٣م)

---

(١) وشاحك : ثوبك .

وقد جاء فى مختار الصحاح . والوِشاح بالكسر ، شىء ينسج من أديم عريض ، ويُرصَّع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها . وشَّحها فتوشحت (لبسته) ، وربما قالوا : توشح الرجل بثوبه وسيفه .

نسر

أصبحَ السَّفْحُ ملعباً للنُّسورِ
فاغْضَبِي ياذُرَى الجبالِ وثُوري
إن للجرحِ صيحةً فابعثيها
في سَماعِ الدُّنَى فَحِيحَ سَعيرِ
واطْرحي الكبرياءِ شِلْوًا [1] مُدمّى
تحت أقدامِ دهرِكِ السّكّيرِ !!
لملِمي ياذُرَى الجبالِ بقايا النّسرِ
وارمي بها صُدور العُصورِ
إنّه لَمْ يعدْ يُكحِّلُ جَفنَ النّجم
تيهاً بريشهِ المنثُورِ !
هجرَ الوكرَ ذاهلاً وعلى عيْنَيه
شيءٌ منَ الوداعِ الأخيرِ
تارِكاً خلفَهُ مواكِبَ سُحْبٍ
تتهاوى من أُفقِها المسحُورِ
كم أكَبّتْ عليه ، وهي تُندّى

(١) شلوًا : عضوًا . وأشلاء الإنسان أعضاؤه بعد البلى والتفرق .

فـوقَـهُ قُبْلـةَ الضُّحَى الـمـخـمـورِ

* * *

هَبَـطَ السَّفْح ... طـاويـاً من جناحَيْهِ
عـلى كـلّ مَـطـمـحٍ مَـقْبـورِ
فتَبارَت عصائب [1] الـطّـيـر مـا بينَ
شَـرُودٍ مـن الأذى ونَـفُـورِ
لا تـطيـرى ، جوّابةَ السفّح ، فالنّسرُ
إذا مـا خـبرتِـهِ لـمْ تـطيـرى
نَـسَـلَ الـوَهْـنُ مِـخْـلَبَيْـهِ وأدْمَـتْ
مِـنْـكـبَيْـهِ عـواصِـفُ الـمقـدُورِ
والـوقـارُ الـذى يـشيـعُ عَـلَيـهِ
فضلَةُ الإرثِ من سحيق [2] الدُّهورِ ! !
وقَـفَ النّسرُ جائعـاً يَـتَـلـوّى
فـوقَ شِـلْـوٍ [3] عـلى الـرّمـالِ نَثيرِ
وَعِـجـافُ الـبُغـاث [4] تَـدْفَـعُـهُ
بـالمِخلَـبِ الغَـض والجَناحِ القصيرِ
فَـسَـرَتْ فيـهِ رعـشـةٌ من جُـنُونِ
الـكبـرِ واهـتـزَّ هِـزّةَ الـمقُـرورِ

---

(١) عصائب : جماعات .
(٢) سحيق : قديم .
(٣) شِلْو : عضو من أعضاء الجسم .
(٤) البُغاث : بُغاث الطير بفتح الباء وضمها وكسرها ، شرارها .

ومـضى ساحباً على الأفُقِ الأغبرِ
أنقـاضَ هيـكـلٍ مـنْـخُـورِ
وإذا مـا أتـى الغـياهِبَ واجْتَازَ
مـدى الـظّـن مـن ضميرِ الأثيرِ
جَلْجَلَتْ منه زَعقَةٌ نَشّتِ الآفـاقُ
حَرّى مـن وَهْـجِهـا المُستطـيرِ
وهـوى جثّـةً على الذِّرْوة الشّمَّـاء
فى حـضـنِ وَكْـرِهِ الـمَـهْجُورِ !

***

أيّها النّسْرُ هَل أعُودُ كَمَا عُدْتَ . .
أمِ الـسّفْـحُ قَدْ أمَاتَ شُعُورِى ؟!

(١٩٣٨م)

قائمة المراجع

١ـ إبراهيم الصيرفى (ترجمة) الخيال الرومانسى / موريس يسورا .

٢ـ إيليا الحاوى / عمر أبو ريشة . شاعر الجمال والقتال .

٣ـ عباس محمود العقاد / ساعات بين الكتب .

٤ـ د . عبد المحسن بدر / حول الأدب والواقع .

٥ـ أ . عمر الدسوقى / دراسات أدبية .

٦ـ حرف العين / الموسوعة العربية الميسرة .

٧ـ د . محمد حسن عبد اللّه / الصورة والبناء الشعرى .

٨ـ د . محمد غنيمى هلال / النقد الأدبى الحديث .

٩ـ د . محمد مندور / الأدب ومذاهبه .

١٠ـ د . زكى نجيب محمود/ قشور ولباب ـ الشعر وألفاظه . وردزورث .

١١ـ د . يسرى العزب / القصيدة الرومانسية فى مصر (١٩٣٢ ـ ١٩٥٢)

١٢ـ ديوان زهر الربيع جـ٤ .

١٣ـ ديوان صدى ونور ودموع .